ألم النبي

أيمن سليمان عبد الملاك

رواية

المصري للنشر والتوزيع

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

ألم النبي

ألم النبي
أيمن سليمان

تصميم الغلاف
عبد الرحمن الصوّاف

المراجعة اللغوية
محمد طاهر

إخراج فني
أحمد متاريك

الطبعة الأولى يوليو ٢٠١٥م.

رقم الإيداع:2015/8554
ISBN: 978-977-770-020-7

المصري للنشر والتوزيع

المدير العام: **يوسف ناصف**

عمارات العرائس
المعادي الجديدة – القاهرة
+2 01064378376
+2 01146335098
info@elmasrypublishing.com
www.elmasrypublishing.com

© جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقية أو اليكترونية أو فى وسيلة سمعية أو بصرية دون موافقة كتابية، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

أيمن سليمان

ألم النبي

دار المصري للنشر والتوزيع

إهداء

إلى من سندَتْ جِذعي عندما شَطروني
إلى من ارتحلَت معي في رحلة نحو اللاشيء بسرورٍ ورضا
إلى من عيَّروها بقُبحي، فتعالَت عليهم بعِشقي
إلى أربع سنوات من الألم
إلى حبيبتي "س"

في البدء

– اهدأ يا حبيبي، ما بالك غاضب ومَكْلُوم؟

فردَّ الموتُ عليها بعصبية:

– ألا ترين ماذا يحدث لي؟ إنهم يمقتونني دومًا ويبجلونك على حسابي، مع أنك تتحقَّقين في وجودي.

فقالت الحياة له كي تهدئ غضبه.

– يا حبيبي، أنا أعلم جيدًا أنك الوجه الآخر لي، فلولاك لكان البشر سيمقتونني ويفقدون المعنى الحقيقي لي... فوجودك هو الذي يُعطيهم الدافع للإنجاز والسعي الحقيقي... فلا تغضب منهم لأنهم يجهلونك، أما الآن فركِّز جيدًا فيمَن ستختارهم للنبوة في الوقت القادم... هل قررتَ مَن هُم؟

أدرك الموت هيجانه بحنان زوجته فأجابها في وِد...

– نعم، قررتُ الدفعة القادمة... سآخذ المنتحرين...

فتعجبت الحياة وقالت له:

- المنتحرون؟! ألم تجد غير هؤلاء يا حبيبي؟

فابتسم الموت ابتسامة مبتورة، وأردف..

- "المنتحرون يا حبيبتي هُم مِثلي. منبوذون على الدوام، والرفض والنبذ أقصى أنواع الألم، والألم وقود النبوة... وكما تعلمين أن النبي هو الشخص الذي يتحمَّل آلام غيره في صمت، دون وعظ أو نُصح...

فَتِرِيَاق أوجاع البشر هو المشاركة الوجدانية، والعزاء الحقيقي هو نبي مُؤنِس يعرف أوجاعهم جيدًا ويختبرها مَعهم؛ ليعطيهم الأمل في القِيام مجددًا أمام يأس طَمَستهم فيه المُعاناة...

ليصل المَغزَى الحقيقي لَكِ، ذلك الذي نعمل جميعًا كأقدار لإبرازه لهم؛ وهو السلام الروحاني، الذي يُصيب نفوسَهم فيعيشونك بِرضَى وقناعة"...

فردَّت الحياة مستفسرة:

-" لكن هذا ليس إطار النبوة المُعتاد يا قلبي وعشقي"..

- "نعم، أنا أعلم يا شريكة روحي... ولكن النبي الحقيقي هو الذي يزرع داخل كل القلوب نبوّته، وهذا ما لم يفهمه البشر من أنبياء الماضي... فالأنبياء بَشر أرسلهم الله للبشر حتى يَصيروا أنبياء...

لذلك اخترت هؤلاء الذين يراهم الجميع في مَزابل الإنسانية وهُوة الكُفر ويتهمهم الكُل بالفساد... لكي يعلم الكل أنه إن كان البشر ييأسون من أنفسهم فالله لا ولَم ولَن يَيأس منهم"..

* * * *

1

في عَتْمة الليل الأكحل الثالثة صباحًا وسط الفراغ في الأعلى... على قُنة أشمخ الكباري المطلة على النيل، وبعدما تعدَّى ذلك الجدار الإسمنتي وأصبح منه إلى اللاشيء ثم الماء... كان يراجع كل تساؤل أرَّقه في حياته التَعسة بِكل كآبة مع نسيم الليل وقطرات العرق المتجمعة على جبينه إثر الرطوبة... ببرود ينظر للأسفل في الهوة ما بين الكوبري والماء مُقرِرًا أنه لا يريد السكون في الجحيم بعد الآن، يرفض الخنوع عن الجهالة ولا يريد أن يكون قليل الحيلة في الفهم...

فتَرسِم مؤشرات جسده لوحة لعدم الوَهَل من هذا المشهد الذي يراه بعينيه الثابتتين على هذا الارتفاع الشاهق مع دكونة الظلمة التي تعطي خلفية الشؤم للنيل... وكأنه عندما قرر أن يخسر حياته تبددت كل أوهام الخوف من الفناء، وعندما اختار "هو" الموت شعر بالسلام، وأن الأمر ليس كما كان يشعر أنه بهذا السوء عندما كان متمسكًا بالحياة...

لاأحد يبالي من السهَّارة وهذا ضاعف وجعه حد الموت، الموت الذي يترجاه إنقاذًا من ألمه وجراحه العميقة التي أصبحت كالرِّماح تطعن في قلبه مع كل نبضة حياة يحياها في هذا الوجع المستفحل الذي يغشاه في كل حين.

فرد يديه في الفراغ على الجانبين كالصقر المُحلق. صرخ بصوت جَهوري وأليم "آاه" مع دموع غزيرة غزت عينيه الجامدتين غير المُعبرتين عن شيء... ملامح وجهه ثابتة كوجه رخامي، تراها تتألم لكن تظل تتساءل في نفسك ما الذي جعل هذا الوجه بهذه الصورة المزرية؟... ما الذي يجعل هذه الجفون تزرف الدموع كالشلال دون رمشة ولا حركة تشرح سبب هذا التمزق؟.. ما الذي يجعل عضلات وجهه كالصوان صلبة لا تنفعل، وترى فيها كآبة العوالم جمعًا بمجرد النظر إليه؟..

وبدون سابق إنذار أخذ يتلو هذه الكلمات...

"الآن أنا محاط بالموت!"

عند ذلك الحين وأخيرًا بعض من التائهين والحزانى والفرحين، بعض المارة، بعض البشر، بعض من هذه الكائنات التي تشعر ولا تشعر في ذات الوقت... التفتوا إلى هذا المجذوب الذي يتكلم الثالثة صباحًا بالفُصحى وهو على وشك السقوط من أعلى كوبري في البلاد ثم أردف هو قائلًا...

"الآن أنا مُحَاط بالمَوت...

مَخَاض يَوم وِلَادتي كان سُمًّا...

سَرسَوب أول أيام الحياة كان عَلقمًا...

لا أدري ما أدري ولا أعرف شيئًا...

عقلي من الوجع أصبح جِيفة بِكُل مَعنى العَفن...

لا يُعقل يا خالق أن يكون الوجود قاسيًا كما العاج في صدر ذبيحة...

ولا الألم منقوع الماء يجري في الدماء يعاقب الخلايا...

فأنا الشَر يَقتات على كَبدي وأحشائي فيتبرز العُنف عَقلي بِالطَاعون...

والدود يَسبح في وَجهي مع الموت المُبتَشِر كليتيَّ"...

ثم التفت إلى الجموع المُلتفة حوله معطيًا ظهره للفراغ العميق الليلي جاعلًا صوته خَشنًا عن قصد كَصوت شيخ مُتَطرف يُلقي خُطبة جمعة في أحد المساجد المعزولة عن العالم قائلًا:

- أولدتنا أمُهاتنا كي يختبروا أَفراجهُن؟!..

أزرعنا الآباء كي يمتحنوا مَنيهم؟!..

أكنت أنا مجرد ثمرة الشبق بالحك والآهات؟!..

هل أنا المقصود في هذا العَبث والغَم؟!"

ثم تغيّر وجهه إلى ساخط حانق، وتجعّدت جُفونه بألمٍ، فتحوّل صوته إلى ذليل رافعًا يديه نحو السماء كأنه يصلي...

- في ماذا كان يفكر القدر عندما انتخبنا دون معرفتنا أو بالأولى دون إرادتنا للحياة في جهنم هذا لتحضيرنا لجهنم ذاك؟!

أيتلذذ عندما يرانا مكسورين؟

أينتشي عندما يسطر الألم والوجَع عُنوان قِصتنا؟!

أيصاب بالاكتفاء عندما يَرانا نتذلل له ولا يَستجيب إلا بالخنوع أمامه.؟!"

حينها مضى أحد المدعويين لهذه الخطبة السمجة غير المفهومة للمعظم، وكانت هيئته الرثة هي أكثر ما يُميزه... فهذا الجاكت البُني المغطى بشالٍ غَث، مُهترئ، قَديم قِدم الأزل، مَلفوح على الجلباب القصير زيتي اللون

مع اللحية المنسية لقرون مُلبَّدة بِطين كَثيف يَطال الشعر الأشعث الذي يُغَطي وجهه الحاد ذي النظرات الثاقبة التي تَدل على فِهمه ما يَحدث والشُعور أيضًا بما يُقال حتى أنه أخذ يقترب منه بخطوات بطيئة لكنها ثابتة عين تثقب عين ونظرة تقذف نظرة...إلى أن وقف أمام الرجل الذي يعاني ورفع يده إلى أن جعلها على صدر هذا الذي يقف ويهذي في أنصاف الليالي، وببرود ناقة تجتر قيئها في عجف الصحراء رفع يده ورساها على صدر الشاب الذي يقف على الجدار الإسمنتي وأزاحه نحو السقوط وهو يرى البسمة على وجهه ضاحكًا ومستسلمًا، مستذابًا في الشعور بالرضا، تاركًا العنان ليديه تتحسسان نسيم الغرق وهو ينظر للجميع الذين مدُّوا رؤوسَهم لينظروا إليه، فوجدهم وكأنهم يصعدون إلى السماوات... في السقوط لا يميز المرء من الذي يسقط أو من الذي يعلو... وبهدوء استقبل الماء...

2

أخذ ينظر إليه وهو يتموج أسفل قدميه مع الموجات الخافتة تحت هذا الكوبري العالي بجوار أحد المَراسي الحاوية بعض الفلوكات التي تَتهادي ذِهابًا وإيابًا مع الموجات الخافتة... يتأمل جسده الذي يرتطم في الصخور المبطنة جدران الكورنيش من أسفل وهو يتموج ببطء قوقعة حلزونية على سطح المياه ولا يوجد أي تعبيرات على وجه هذا المتعفن الذي يراقبه بثقة وكأنه يعلم ماذا فعل عندما أزاحه من أعلى الكوبري وإخذ يتلكأ إلى حين وصل لهذه المنطقة التي يؤتي لها التيار بلاياه...

وبعد التَمعن في جسد هذا الغريق قَرر أخيرًا أن يُخرجه فأمسك بجاكته الجلدي ثم أخذ يسحبه ببطء لئلا تُدَق رأسه بالصخور فهو لا يحتاج إلى صدمات أخرى كي يفقد وعيه بهذه الطريقة فجرجره من ثقل جسده إلى خارج المياه حتى رفعه على أرضية المرسى بملابسه المبتلة التي طبعت آثارها على جلباب هذا الشحاذ ذي الهيئة الرثة... فأناخه على الأرض وفرد كفه وأتى بها على وجهه ولطمه لطمات خفيفة لعلها تفيقه من فقدان وعيه إثر سقوطه وارتطامه بالماء فلم يعطِ المغشي عليه أي رد فعل فزوَّد الرثُّ حدة اللطمات لكن المنتحر لم يفق أيضًا... فلطمه الشحاذ فجأة على

وجنته بعنف مُدرِّس ينتقم من تلميذٍ جُهنمي فَهَب المَلطُوم من الفزع لِأعلى... عيناه جاحظة كأنه أفاق من كابوس وأمسك من الزُعر عُنق هذا الشحاذ وهو يلهث من الخوف كأنه غزال مطارد من قبيلة أسود تركض خلفه، ولكنه نظر أنه مازال حيًّا فارتخت يداه من عنق هذا الشخاذ الذي يملك برود العالم كله ولكن لم تتركها فتَنَحنح الشحاذ وهو يشير بعينيه إلى يديه اللتين تطوقان عنقه فترك أخيرًا عنق الرجل وهو يتلفت يمينًا ويسارًا متسائلًا في نفسه هل أنا حيٌّ أم أين أم كيف؟..

التشويش غالب على تفكيره فنظر للشحاذ نظرة مسجون في زنزانة بلا أبواب وراحت عيناه تُحَدِّث دون وعي عَمَّا يعانيه من مقاومة شيء عنيف يجول في خواطره...

الشحاذ مُندهشًا تساءل ماذا يحدث؟ لم يتوقع بعد كل ما رأى في العالم أن يأتي هذا المشهد أمامه مرة أخرى فأخذ يستمع إلى نبرات صوته التي تشبه نداءات مريض يستجدي علاجه في الرمق الأخير من الحياة تقول عن ألم ووجع ملأ صوته وعينيه المرقرقتين...

" فَرج عَفِن... يَلد جَنِينًا زَنِيمًا مُكَلَّسًا بِالحِيض جسده في رَحِم عَاقر، وفي غير معاده أتى إلى الجحيم... فريسة إله... عيناه شر... يداه قضاء... قلبه حزين... ضحية أم ضاحٍ؟"

ثم نظر للشحاذ الغريب، ذي المَلامِح التي عَاف عليها الزمن، نظرة غريق داخل حُوض زجاجي شفاف مملوء بالماء وقال...

"انقذني من تَعسي أنا مُشَوش... أنا مُغَيب وعَنيد... استفهامي يَأكلني من الداخل كما السَرطان... أسئلتي لا تُجاوَب بل تُدَان فلم أرَ إلا في الموت جَوابًا... كل حين ما أراه هو الموت"

فأجاب الشحاذ مقاطعًا إياه...

"اهدأ يا ولدي اهدأ"

وأخذ يُحرك يده على رأسه ويهدِّئ من روعه مع دموع تريد أن تهجر محجريها لتنسال في عالم المنافي فلم يجد الشحاذ الغريب شيئًا يساعد به هذا الشاب إلا أن يضعه في حضنه ضامًّا إياه بكل قوة، ودموع تَتَرقرق داخل جُفونه قائلًا له...

"انت الضحية وأنت الضاحي.. أنت إلهك... بك وعليك تحاسب نفسك... بعد أن آلموا روحك زنموك ونبذوك من دون إذنك... ضعفك هو نفسك يا ولدي... آه منك أيها الأبله معاناتك أعلمها، لم يُسلمني منها لا رب ولا درب غير الإنكار واللامبالاة بكل ما في الحياة"

وبهدوء حرره من حضنه العفن من عدم النظافة وبتروٍّ وضع يده تحت جمجمته وأرساها على الأرض، ناظرًا إلى وجهه المرسوم على ملامحه كل أنواع العذاب التي تخيلها البشر...

3

أخذت سارة علبة المورفين من سطح الكمود بجوار السرير الذي يعلوه أباجورة حمراء اللون تعطي ضوءًا أحمر ناريًّا عند إشعال مصباحها، وسط الظلام الدامس الذي يكسو الغرفة نتيجة لطلاء الحوائط باللون الأسود مع النجفة الحمراء التي تعطي نفس الضوء الناري الذي يوحي عند دخول هذه الغرفة أنه مُرحبٌ بك في الجحيم، مع شعور كئيب يُبعث عندما ترى اللوحة السيريالية التي تحتوي على صورة سيدة مجردة من ملابسها مَربوطة يَداها في وتدين خشبيين مثبتين في أرض صخرية ممدود منهما سلاسل مثبتة يد السيدة اليمنى في الوتد الأيمن واليد اليسرى في الوتد الأيسر ويقف في وسطهم وخلف السيدة رجلٌ عملاق عريض الصدر مفتول العضلات وجهه نَضير ومُونق ولكنه يعبر عن غضب العالم كله في عينيه، مُمسِك في يده سُوط أسود مكون من عصا متفرع منها ثلاثة فروع مصنوعة من أجسام ثعابين سوداء مُرقطة بالأحمر، في كل ذيل منها خطاف عاجي مسنون... فوق السرير الدائري ذي اللون الأحمر الناري التي كانت سارة ممددة عليه ممسكة في يدها علبة المورفين تسحب منها 25 ملجم بمحقن ثم تضعها بدون أدنى إحساس في جلد بطنها المُبَقْعة باللون البني من إثر هذا الخدرالمحقون في جسدها باستمرار، ثم

تبدأ رحلتها مع "مورفيوس"(*) بمصاحبة أول نفس من هذه الحشيشة التي أخذت منها قطعة تشبه خلة الأسنان منفذة إياها في وسط سيجارة بالعرض لتصنع علامة زائد وتحشر السيجارة في فوهة الكوب الزجاجي فتشعل في قطعة الحشيش جحيم القادحة كي تبدأ عذابات النفس لتكون أولى المدعوات لهذه العوالم التي تدور في خيال هذه الفتاة عندما تكتم فوهة الكوب بيدها إلى أن يمتلئ بسحب السماء والجحيم فتضع أنفها وفمها تستنشق هذا الكون الذي يتخلل داخلها في غضون لحظات مستدعيًا مفعول المورفين في الدم جاعلًا إياها لاوعيًا واعٍ غير مدرك بما يريد أن يدركه كي يفهم ما الذي يجعله هكذا..

أخذت سارة تستنشق هذا الدخان مرارًا وتكرارًا إلى أن وصلت لهذه المرحلة التي لا يتوقعها أي من يبدأ هذا الفعل... فمن يشرب الحشيش يمكن أن يكون في مزاج جيد، ثم يستدعي كل الندم والبكاء والدموع والأفعال والرثاء في آن واحد، فهذا الدواء الذي تستنشقه هذه الفتاة يستحضر عقلها الباطن في وعيها المستيقظ، فتصير في الهوة ما بين الواقع والخيال بكامل إرادتها وهذا الشيء غير متوقع فهو كأنك تحلم حُلمًا وأنت مستيقظ أو ترى رؤية... في بعض الأحيان يمكن أن يكون حلمًا جيدًا لكنه في الأغلب يكون كارثة...

ومع امتلاء فراغ الغرفة بالدخان الذي ليس له منفذ يهرب منه غير صدر هذه الفتاة التي استقامت تدريجيًّا وهي تتسند متحاشية سقوط رأسها من على جسدها واضعة يديها ببطء السلحفاة على الحائط الأسود فوق سريرها الذي يحمل هذه الصورة المريبة للمرأة العارية والجلاد...

(*) "مورفيوس" هو إله الأحلام عند الإغريق، أبوه هو "هيبنوس إله النوم

ثم بمعجزة جعلت قدميها تقفان وتحملان جسدها الممتلئ عند الصدر، ثم ينزل ممشوق إلى أن يصطدم بأردافها الممتلئة التي تجعل شكل جسدها مثل تماثيل آلهة الإغريق...

لم تعر اهتمام أنها عارية من الأسفل دون أي ملابس، إلا صدرية تتوسد نهديها المكتنزين وأخيرًا تحررت يداها من الإمساك والاستعانة بالحائط في الوقوف... فتقدمت بخطوة أوصلتها إلى وسط السرير... ممسكة الكوب الزُجاجي المَلِيء بالدُخان في يَدها اليُمنى... استنشقت منه شهيقًا مغمضة فيه عينيها... ثم رفعت رأسها لأعلى وهنا بدأت تزفر النفس الذي استنشقته من الكوب الذي في يدها اليمنى ليخرج من فمها الدخان المستَدَر من رئتيها ممزوج مع الدخان الذي يخرج من الكوب كأنه بخور قداس الموتى ليضيف إلى الدخان الذي يملأ أرجاء الغرفة سابقًا حفنة من الغياهيب في ظل الضوء الأحمر الناري ووسط ظلام حوائط مع جسدها العاري إلا من الصدرية... فتتفتح عيناها في بطء زهرة تترقب الفجر وتتحدث كأنها تحدث أحدهم في الغرفة الفارغة..

شهوتهم ألم... ثيابهم وجع... هم أمساخ

ولا يرحموني إلا بعد الموت... يرون لي الحياة عقابًا

يشبعون بغمد السيف في قلبي وجسدي...

يجرحون جسدي كي تطيب جراح نفوسهم المريضة...

أتسمعني؟!... ألا تعلم أنك أنت السبب؟

بالطبع لا تعلم، فأنت تراني عارية الآن... نجسة وعار...

شيطانة غير تائبة... لا تعرف الصلاح ولا تهتم بالجمال

أليس المفروض أنك تعلم بالقلوب؟! أما أنت الرحيم؟!

أنت تطلب مني التوبة والانقطاع عن هذا لأن هذا هو مصدر الألم... ماذا؟! لا لا، أنت مصدر الألم... أنت من دفعني عند سكاتك، وأنت من تخلى عني عند عدم فهمي... أنت من طلبته ولكنك لم تتحرك ساكنًا... تركتهم يقطعونني كالشاة... أتعلم مدى الجرح في نفسي عندما طلبتك ولم تعرني اهتمامك؟

بالطبع لا تعلم فأنت غير موجود أساسًا... لكني على كل حال شعرت بالخيانة..".

حينها قطع حديثها أُحادي الجانب ذلك الجرس الذي دومًا ينبهها أن الجحيم قادم ليلتهمها بعد عشرة دقائق... رَخت يديها على جانبيها لينزلق الكوب الزجاجي في يأس على السرير مُسربًا دُخَانه كأنها جني يخرج من مِصباح.. ببطء شديد تعي معالم الغرفة حولها وتسترجع جزءًا من وعيها التائه مع نزولها من السرير والتأكد من وجود أدواتها التي لا غِنى عنها في عملها... فتأكدت من وجود المسدس تحت مرتبة السرير، بعد ذلك أحضرت علبة "الإسبراى"... المخدر الموضعي المستخدم لدى الرياضيين لتخدير الوجع وبدأت بالضغط على العلبة إلى أن أفرغت محتوياتها على مِهبَلها من الخارج ثم أتت بعلبة المورفين أخذت 25 ملجم أخرى بنفس الطريقة لاحتمال الألم الذي يفصلها عنه حتى الآن خمس دقائق... فقامت حتى تلقي نظرة سريعة على نفسها في المرآة لتتذكر وجهها وجسدها، وعندما وقفت لاحظت الدم المتجلط على شفاهها

المفتوحة والورم المُهَال على عينها اليسرى جاعلًا إياها شِبه مُغلَقة ومُحاطة بِلَون الدم المحبوس لتعطي لونًا بنفسجيًّا قاتمًا...

استدارت لترى ظهرها المجلود بعنف إثر ضرب الحزام على جسدها بعشوائية... ثم جاءت الكارثة عندما نظرت إلى مؤخرتها المضروبة ضربات عنيفة أدت إلى زرقة في مناطق عديدة في هذه المنطقة الدهنية بطبيعتها لكن من وحشية الضرب في آخر جولة مرت بها سارة أضحت مؤخرتها وفخذاها تمتلكان مظهرًا مثيرًا للشفقة ومقززًا في ذات الوقت... فنظرت لنفسها في عينيها المعكوسة في المرآة كأنها ترى شخصًا غيرها تريد أن تعزيه على هذا الشكل الكئيب الموجع للنفس قبل الجسد، فربتت أول دموعها على كتفها كأنها تعزيها في وحشتها وألمها ووحدتها المميتة...

صدح الصوت في خارج الغرفة معلنًا أن ضيف الجولة لا يفصله عنها سوى أقدام مع كلمات الترحاب والإجلال من "صفية" المضيفة...

- لك وحشة يا شيخ عبدالله".

- انتي أكتر يا صفية".

- "مالك؟! وقت طويل غبت علينا بطلتك الحلوة".

- "الأشغال يا صفصف انتي عارفة، وأنا جاي اليوم عشان ألاقي الراحة".

فبضحكة عاهرة جلست على فخذه بملابسها الشفافة ونهديها الصارخين استنجادًا من ضيق ملابسها، واضعة يديها خلف رأسه وتضغط ناحية نهدها، فقرب الرجل أنفه يتجول هذا الفردوس الماجن، فذهبت المرأة فجأة مبتعدة قائلة له.

"انت غيرت الصنف يا شيخ، ولا إيه؟" –

"لا ما غيرت ولا هاغير... أنا هو أنا"

"يبقى سارة جوه مستنياك أنا مقدرش أستحمل زييها".

فضحك الرجل بلؤم، ثم قام بهيئته العريضة الطويلة واقترب من الباب حتى وضع يده على الأوكرة وفتح الباب كي يرى سارة أمامه على السرير الأحمر الناري...

ظهرها قائم ورجلاها مبتعدتان عن بعضهما البعض مما جعله ينظر إلى الذي ما بين فخذيها مباشرة دون ملابس غير الصديرية التي تُصعد ثدييها الممتلئتين للأعلى، فتغيرت ملامح وجهه عندما رأى ما أصاب جسدها من عقاب وضرب وألوان شوهت إعصار الإغراء الذي ينضح من جسد هذه اللبؤة التي جعلت ليوث الكون تدب بهم ثورة الجياع إلى الشهوة. فنظر إلى صفية بغضب وقال:

"شو هاد ياوش البوم انت كنك مش دارية إني جاي اليوم؟" فبرعشة تملأ حنجرتها دافعت.

"اللي حصل الليلة كان مفاجأة ياشيخ، الزبون كان جديد ومكناش عارفين أنه حامي كده"

فتجهم وجهه وصرخ فيها.

"وانا ياخرة الكلاب انت شو بدي أعمل بلحم الميتين هاد... جايبهالي مِطحنة ياوصخة. والله في سماه ماشفت أعلج منك كلبة المال".

لم يصدر أي رد فعل من سارة التي كانت تنظر لهم نظرة ثابتة تملأها

عدم اللامبالاة المعصورة من الألم والوجع، لكن ذلك لم يثنِ أحد منهم على الاتفاق القادم، حيث بدلال مغسول بالخبث قالت له صفية

" سامحني ياشيخ شيوخ العرب"

فحول عينيه ناحيتها ببطء من بعد استفهامه في نظرات سارة

"النهارده تعال عندي أنا... هدية مني ليك للصبح ملك إيديك ورجليك وسارة الأسبوع الجاي هحجزهالك 3 أيام لوحدك، بس إديني الأسبوع ده أحضرهالك فيه وهتلاقيها زي ما أنت متعود"

تضع يديها على كتفيه ثم ترمي بجسدها نحو جسده فتلتصق به، رفع حاجبه الأيمن مدللًا على أنه لم يسامح، لكنه قبل بمزاجه وبلثمة فاحشة على ثدييها أردفت.

- "بس دكتورة التجميل عايزة فلوس ياعبده

- "كم؟!"

- "خمسين ألف بس".

- "طيب، هاكتبلك شيك".

هذا لم يكن مُبالغًا فيه كمبلغ من ثروة الشيخ عبد الله التي تبلغ حسب المعروف اثني عشر مليار دولار، والتي إذا جمدت على حالها هذا دون زيادة وصرف منها مئتي ألف دولار يوميًّا ستكفيه لمدة عشرين عام متواصلة...

ابتسمت صفية وهي تعض على شفتيها بخفة وبصوت أنثوي مستضعف وبكاء مصطنع عن قصد، اقتربت أكثر من جسده.

"إيه ياراجل، مش ناوي ولا إيه؟! أنا محروئة تعالى طفّي النار بقا".

انتفخ صدرالشيخ بالنشوة ونظر لها نظرة ثقة ممزوجة بالشهوة، مسكها أسفل ظهرها بتأوه وسحبها للخارج ثم تقدم عنها بخطوة وهي تخرج خلفه ناظرة لسارة، أغلقت الباب الذي كان مكتوبًا عليه بلوحة كبيرة سوداء بها صور كرباج وأدوات تعذيب، اسم القسم الذي يُعرف بأنه أرخص وأغلى وأفظع وأحقر أقسام الدعارة

"Sadism"

4

- اسمك إيه؟

سأل الشحاذ وهو يتأبط الشاب من خلف ظهره ويرفعه من الأرض على مهل، فردّ الشاب بدون تركيز وبابتسامة مبتورة تدل على حزن داخلي

- ملحد وانت؟

- أنا قصي باشا رئيس مباحث زبالين المنطقة.. ملحد؟! هو ده اسمك في البطاقة؟

سأله الشحاذ حتى يخرجه من عدم تركيزه وتشويشه ويستثير عقله إلى عالم الواقع فيفيق مما حدث له، فجاوبه الفتي وهو لا ينظر له: لأ

بلامبالاة أجاب الشاب وهو يبتعد عن قصي ويلتفت إلى ملابسه المبتلة في بلاهة وصدمة وإخذ يهندمها ليجعلها مبتلة لكن مرتبة على الأقل... وبعد عدة خطوات وهو يمشي للأمام تذكر الشحاذ فالتفت للخلف ليجده يقف مكانه وينظر له في رثاء فرد الشاب النظرة بعرفان دون أن يتكلم فرد عليه الشحاذ وهو يهمهم ويبتعد : العفو أي خدمة... ماتقطعش الجوابات

5

بدأت سارة من بعد خروجهم تضيق وهي تتذكر وتُسطر بعقلها ألمها كأنها مشاهد حية أمام عينيها التي دمعت رغم عنها برعشة تتملك في جفونها تنم عن كبرياء ذات متهاوٍ...

مقلتاها متحجرة على الحائط كأنها ضريرة لا ترى شيئًا ولا تهتم لشيء... غير مبالية بعريها...

فبالنسبة لها أصبحت لا تشعر بالخجل فهي على مدار اليوم عارية، أي شخص يراها هكذا ولكن لا أحد يستطيع أن يقترب منها نظرًا لثمنها ونوعيتها، وإن تعدى عليها أحد من الزبائن لن يطاله غير طلق ناري في أي مكان في جسده تأديبًا وتحذيرًا للآخرين...

سارة كانت تنظر لنفسها على أنها قصة تقرأها، قصة حزينة وشَجِنة من فرط بؤسها على نفسها وجسدها وعاطفتها وكيانها المتهالك من التفكير الأسود والأطياف اللعينة التي تهيم على ذاكرتها دون استئذان أو تحذير بالولوج، فهي تنظر إلى جسدها الذي تتمنى الإناث الأخرى طغيانه وشراسة أنوثته على أنه زنزانة قذرة يتبول فيها عامة الحقيرين ويتقيأ داخلها المخمورون ويرمي الأقذار قمامتهم بجوار حوائطها حتى

تستحق لقب مزبلة عن جدارة...

شخصنت جسدها جعلته عدة شخصيات، جسد يجعلها تحارب نفسها يشعرها بالكآبة على الدوام ويركز فكرها على الألم والوجع، كراهية، عقاب، صراخ، هروب، تفكيرها أصبح كمرض الآيدز لا يبقي على أي نوع من أنواع الأمل في حياتها، فهي مقتنعة أنها خسرت نفسها والسبب جسدها. فتجلد نفسها وجسدها انتقامًا واعتراضًا على وجودها داخله لأنها إلى الأبد ستشعر بمشاعر قاسية وهو فقدان الأمل واليأس والخسارة والهزيمة والذل...

رأت جسدها على أنه قدر تعانده وتستحلي أن تؤذيه عندما تمتنع عن الطعام لدرجة فقدان الوعي ولذلك أصبحت أكياس الجلوكوز والكانيولات مختزنة في غرفتها وأحد الفتيات من شريكاتها في الماخور صارت متمرسة كالممرضات من كثرة إغمائها وأحيانًا أخرى تمتنع عن التغوط فتتألم وتتمغص لفترات طويلة...

تبكي وحيدة دون أن يشعر بها أحد كالوطواط وسط عقابها لوجدانها ولكنها لا تشعر بالسكينة، فدائمًا روحها في أزيز عنيف يفقدها سلامها الداخلي حتى بعدما طلبت من صفية أن تجعلها في قسم الساديين التي تتعامل فيه مع فنانين التعذيب من قمع وإذلال وسب فاحش بطريقة عنيفة وأحيانًا تصل إلى هيستيرية حتى أنه سُجلت حالات قتل من شدة النشوة التي يصل إليها السادي في إيذاء الجسد لكن وجودها في هذا القسم لم يساعدها قدر ما زاد عليها أوجاعها جاعلًا عينيها مستنقع دموع لا يجف...

عينيها التي كانت تتلفت يمينًا ويسارًا تبحث عن سجائرها المسنودة

على الكومود بجوار علبة المورفين...

أمسكتها فاتحة إياها تلتمس منها حريقًا يطفئ جحيمها العقلي لكنها امتعضت عندما وجدتها فارغة؛ لأنها كانت العلبة الأخيرة فانتزعها احتياج دماغها للنيكوتين من ثباتها وقررت أن تسافر بضع خطوات إلى ملابسها حتى ترتدي بنطالها الجينز التي شعرت وهي ترتديه أن جلدها نسي ملمس الملابس منذ عدة أيام ولكنها ارتدته مباشرة على كل حال دون أن تعير أي اهتمام للأندروير مع بلوزة وردية سبعاية تخبئ ما برز من جراب الأنوثة المنبعثة منها وبالطو أحمر ثم انحنت على ركبتيها تبحث على حذائها الرياضي الأبيض المدفون فيه شرابها القصير فوجدتهم مختبئين خلف أرجل الكمود...

ارتدتهم وأخذت مفاتيح السيارة والنظارة "الراي بان" السوداء حتى تخبئ ما نفق من صورة وجهها المعطوب والمتورم في هذا الفجر المعتم...

ذهبت لتخرج من الغرفة دون أن تعير أي شخص أو شيء اهتمام...

فتحت باب الشقة وأخذت المصعد للأسفل وهي تضع الموبايل والنقود في حقيبتها وترتدي النظارة مستبقية مفاتيح السيارة في يديها...

وصلت إلى الدور الأرضي وخرجت من المصعد إلى مدخل العمارة وهي تنظر إلى المرآة التي بطول حائط المدخل...

أبطأتها خطواتها وهي تنظر إلى شكلها بهذه الملابس الطبيعية ثم توقفت وتحركت نصف دائرة لليمين واليسار وهي تنظر على نفسها في المرآة فابتسمت ابتسامة رضا رقيقة من فتاة شعرت أنها عادية..

أكملت طريقها للخارج وفتحت السيارة وأدارت المحرك لتبدأ المضي

إلى الحي المجاور حتى تأتي بخزين بضع أيام قادمة من مورفين وسجائر ثم أخذ جولة في أحد المولات الليلية لتشتري أي شيء يلفت نظرها كنوع من التغيير في حياتها الرتيبة...

بدأت تتحرك بالسيارة على الطريق السريع ومضت بضع دقائق من القيادة المملة للسيارة حتى قررت أن تستخدم الإم بي ثري لقتل الملل فوجدت الفلاشة تهتز ولا تعمل جيدًا عندها نفخت بغضب "أووووف" محولة يديها على الراديو تشغله على الإف إم أغاني ثم ترفع رأسها لتنظر الطريق الذي رأت فيه أمامها شخص على بعد مترات فارتبكت فور وصول الرسالة من عينيها إلى دماغها المشوش وانفرجت عيناها وهي تمسك المقود بكلتا يديها حتى تستطيع الانحراف بعيدًا قدر الإمكان عن هذا المسطول لكنها لم تنجح في تفاديه بالكامل حيث ارتطم جسده بالسيارة وتدحرج على مقدمة السيارة أثناء وضع قدمها على الفرامل المحدثة صفير مدوٍّ إثر احتكاك العجل على الأسفلت مع صوت الارتطام الذي بث الرعب في نفس سارة فأوقفت السيارة على جانب الطريق وترجلت منها كي تجد رجلًا ثلاثينيًّا وسيم الملامح، ملابسه مبتلة ينز منها الماء وسط الطريق يتأوه ويستفيق من إثر الارتطام بالسيارة فأسرعت إليه وهي تقول بصوت مفزوع.

- أنا آسفة.. أنا آسفة

وعندما وصلت إليه ركعت بركبتيها على الأسفلت وهي تبكي، فوضعت رأسها على صدره كأنها تطمئن حي أو ميت، لتجده يقول لها

- انتي بتعملي إيه؟! واحد عمال يقول آاه قدامك بتشوفي تنفسه ليه؟!! أكيد حي يعني...آآآه ياني

حينها رفعت رأسها من على صدره لتنظر له وهي منهارة من البكاء ولا تكف عن كلمة "أنا آسفة" حتى أردف قائلًا وهو مسطح على الأرض، وهي راكعة بجواره تنوح واضعة يديها على صدره دون أن تدري.

– انتي بتبكي ليه؟ أنا اللي بتألم انتي بتبكي ليه؟ يادي الليلة السودة... ياستي الله يكرمك.. اهدي

أخيرًا تحرك فمها بكلمات مختلفة، وهي تمسح أنفها في كُم البالطو قائلة له بصوت أخنف

– متئلئش أنا هتكفل بعلاجك كله هوديك المستشفى دلوقت

– لالالا مستشفى إيه... آاه

قالها وهو يصارع وجعه حتى استقام ظهره ثم أكمل وهو يصفق يديه من التراب دون أن ينظر لها

– انتي اعملي فيا معروف ووصليني لبيتي بس

قالت له بأنف محمر كحبة الطماطم وهي تربت على كتفه كأنها صديقته القديمة

– انت متأكد إنك مش عايز تروح المستشفى

– هو أنا مش متأكد من حاجة بس اللي أنا عايزه دلوئت هو إني أروح شقتي

مرت سيارة على يمين الطريق بها رؤوس كائنات بشرية تخرج من جميع النوافذ صارخين لهم

- وسط الطريق كده والنعمة انتو أحلى دماغ والله... أووووووه فابتسمت سارة محرجة كأنها تقف أمام من طلبها للزواج واضعة يدها على فمها كما تفعل فتاة في الثامنة عشر عندما يغازلها حبيبها فتوجس هو منها وهو ينقل نظرة بينها وبين السيارة التي مرت بسرعة مستنكرًا ومتعجبًا من الفعل ورد الفعل قائلًا في ذهنه

(هو فيه إيه انتي لاسعة ولا إيه بالضبط؟!)

ثم أكمل بصوته الطبيعي

- طب إيه؟!!

ردت هي مسبهلة

- إيه؟!

- إيه إيه؟! انتي بتبصيلي ليكي ساعة في الشارع ومسبّلالي على الصبح

أحرجت سارة من كلامه وحاولت أن تلملم شتات نفسها وتقف ثم توجهت إلى السيارة وهي تتعثر في إحدى المطبات الصغيرة..

فشعر هو بقسوته عليها فنادها وهو يحاول أن يقيّم نفسه.

- انتي مش هتوصليني زي ما قولتي ولا إيه؟!

فتوقفت سارة عن المشي قبل باب السيارة ثم التفتت ببطء وهي تخلع نظارتها وتنظر له فوجدته استقام بصعوبة مصوبًا نظرة تجاهها محضرًا ابتسامة اعتذار سرعان ما اختفت عندما لاحظ ورم عينيها المضروبة ثم تعثر في نفس المطب وسقط كليًّا على جسده فأسرعت سارة تجاهه كي تقيمه وتساعده مُمسكة إياه من ذراعه في صمت وهو يتأمل وجهها

الصبوح بشفقة غير مبالٍ إلا بالتعجب والذنب الذي اقتحمه عندما شعر بوقاحته تجاهها...

- بيتك فين؟

سألت سارة وهي تفتح له باب السيارة الأمامي والتفت من أمام السيارة لتأخذ مكانها في القيادة عندها ارتدت النظارة بحدة مرة أخرى.

الشارع اللي جاي لأ اللي بعده يمين العمارة الثالثة على الشمال. -

وضعت سارة يدها على ناقل الحركة حركته من وضع الركن إلى وضع الحركة ثم رفعت قدمها من على الفرامل ناقلة إياها لدواسة البنزين كي تنطلق متحركة بالسيارة وهي صامتة تمامًا مرت بعض الثواني حين باغتها سمعها.

- انتي اسمك إيه؟

تأففت متململة من السؤال

سارة وهي تزيد سرعة السيارة حتى تصل بسرعة لوجهتها

- "سارة"..

- وانت؟

- ملحد

نظرت له ناقلة حركات رأسها بينه وبين الطريق وهي تضحك

- ده اسمك الحقيقي؟

- ههه أكيد لأ، اسمي الحقيقي "رحيم"

- وأنت إيه اللي بلك كده ع الفجرية؟

- أيوه ياشيخة، أخيرًا ضحكتي كده ورينا الابتسامة الحلوة دي اللي عمري ما شفتها قبل كده ده مع أن انتي اللي خبطاني والمفروض تصالحيني.

ضحكت مبتسمة معلنة عن عدم وجود ضغينة له

- طيب ياعم رحيم، المفروض الشارع اللي جاي ده صح؟!

- أيوه هو ده.

أبطأت السيارة معطية كلاكس بسيط وإضاءة متقطعة كي تستعد لدخول الشارع حين فاجأها رد فعل رحيم عند دخوله إذ وضع يده فوق صدرها واليد الأخرى على المقود وصرخ فيها

- وقفي وقفي بسرعة

فرملت سارة بسرعة مستغربة رد فعل هذا الذي يركب معها يضع يد على صدرها والأخرى على المقود وركع تحت كرسي السيارة ليختبئ بمجرد اجتياز السيارة أول أمتار ناصية الشارع، نظرت سارة بجوارها فوجدته يلهث حذرًا وهو ينظر لها نظرة هارب من الإعدام يحسب حساب خطواته وحركاته وقال لها.

- اطفي نور العربية بسرعة وأول ما عربية الشرطة اللي تحت العمارة تمشي قوليلي.

سمعت سارة ما قاله لها دون تركيز أطفأت أنوار السيارة ثم أخذت تفكر في نفس الثواني أين هي سيارة الشرطة التي عنها يتحدث،

وسبحت بنظرها للحظات مضيقة حدقتي عينيها لتجمع أكبر قدر من الضوء كي ترى في نهاية هذا العتم سيارة شرطة بها سائق وضابط يمسك بجهاز لا سلكي وثلاثة رجال ينزلون من العمارة الثالثة اليسارية ناحية الضابط ويتكلمون معه وهم يحركون أيديهم في اتجاه الطابق الثالث من العمارة...

التفت الضابط ناحية الناصية للسيارة التي غزت الشارع فجأة ثم هدأت وأطفأت أنوارها التي لفتت نظرة غير مكترث بكلام المخبرين مشيرًا بيده فيما معناه "امنع الكلام" فتوقف الرجال عن الكلام والحركة والحياة لمجرد سماعهم الأمر ثم أشار بيد اتبعوني متجهًا نحو السيارة. هذا المشهد الذي أربك سارة جعلها تفكر بسرعة دون أن تفهم ماذا تفعل ثم فجأة فتحت باب السيارة فارتبك رحيم الذي كان يجلس أسفل كرسيه من رد فعلها المفاجئ إذ هو منحنٍ لا يدري ماذا يجري فانحنى أكثر إلى أن التصق وجهه بأرضية السيارة كأنه متصور أنه عندما يقنع نفسه أنه لا يرى شيء فالآخرون لن يروا إلا نفس الشيء...

ترجلت سارة من السيارة وهي معها الريموت كنترول ثم ضغطت على قابس الغلق فصاحت السيارة بصوت خفيف معطية إنذار الغلق ثم وضعت يدها على باب السيارة للتأكد من غلقه وتوجهت إلى مدخل أول عمارة في الشارع وهي تمسك شنطتها وتمشي مشية أرستقراطية...

كان حينها وصل الضابط والمخبرون إلى العمارة الثانية المتوسطة بين الأولى والثالثة حينها توقف فتوقف من معه أوتوماتيكيًّا كأنهم آلات ميكانيكية تعمل برهن إشارات الضابط...

ثبت الضابط نظرة على سارة وهي تمشي وابتسم ابتسامة خفيفة وهو

ينقل عينيه على أسفل ظهرها ثم التفت نصف التفاتة لمن معه قائلًا...

- شايفين المكن ياولاد الصرم حِتة ميري مفهاش غلطة تركبها وتسافر لحد ما تجيبهم من جواك بدل المرة عشرة...

ضحكت الثلاث آلات ضحكات مصطنعة

- عينك حلوة يا أحمد باشا

أردف الثاني

- تعيش وتركب يا أحمد باشا

فضحك الضابط ضحكة عالية مصاحبة لها الضحكات الأوتوماتيكية للمخبرين كي يثنوا على ولي نعمتهم الذي يجب أن يولوه كل الإعجاب والتملق كي ينوبهم من الحب جانب أو على الأقل اتقاء شر البلايا استنادًا على رتبته...

وحين صمت عاود أدراجه إلى سيارة الشرطة ومن بعده عبيده مُكْملين حديثهم عن الشقة التي في الدور الثالث...

حينها كانت سارة وصلت داخل العمارة تنتظر أي إشارة لابتعاد سيارة الشرطة وبالفعل انتظارها كان مثمرًا إذ ابتعدت سيارة الشرطة محدثة سرينة من مقطعين مرت على سيارة سارة لكن دون أي اهتمام خرجوا يمينًا إلى الشارع الرئيسي...

تسحبت سارة من مدخل العمارة الأولى خوفًا من وجود أي شخص باق للمراقبة، نظرت ناحية العمارة الثالثة وهي تختبئ خلف حائط مدخل العمارة الأولى فلم تجد أي شيء أو شخص فركضت ناحية السيارة بسرعة

وفتحت الباب لتجد رحيم ملتصقًا في أرضية السيارة ينظر للأعلى ببطء لباب السيارة، الذي انفتح ليرى سارة، قال لها ببراءة طفل خائف من أمسية زوج أمه

- هما مشيوا؟

نظرت له نظرة تحمل إشفاقًا مُطعمًا بتساؤلات كثيرة وحيرة أكبر وأدل، ردّت بحنو أُم تطمئن طفلًا في الثالثة من عمره

- آه مشيوا خلاص. أنت ينفع تطلع من العربية دلوقت لو تحب..

شعر رحيم بالحرج المعجون بالشعور بالضعف والاستهانة والذل، وبدأ يضع يده اليسرى على كرسي القيادة وهو يقوم ناحية الباب المفتوح كي يخرج ببطء. متألمًا، ومتزمزمًا، ممسكًا جنبه الأيمن الذي ينادي كل أوجاع العالم دون إنذار جاعلًا أنين قيامه وخروجه مثيرًا لشفقة سارة، مدت فورًا يدها لتساعده حينما نقل يده من كرسي القيادة إليها ليخرج من السيارة وجهه مقطبًا من الألم السحيق الذي يمر على جنبه الأيمن بالنوارج مُكَمِّلًا صرير العذاب إلى فخذه الأيمن مما جعله يعرج بوضوح في أول خطوة له..

فعبث وجه سارة من رؤيتها له في هذا الحال، شعرت بالذنب أنها لم تنتبه للطريق فأصابته بكل هذه الآلام والأوجاع... أغلقت باب السيارة ثم بدأت في السير بجانبه وهي تتأبطه بيدها اليمنى خلف ظهره واضعة يده اليسرى على كتفها كأنها تحمل جريح حرب وقالت له...

- أنت بيتك الدور الثالث في العمارة اللي هناك دي صح؟

-أيوه. انتي عرفتي منين؟

- هههه العصفورة قالتلي، تسمحلي أوصّلك طيب وتعزمني على حاجة ولا تحب أوديك المستشفى؟

- لا لا مستشفى إيه لا أنا بس مش عايز أتعبك معايا، انتي كفاية قوي اللي عملتيه معايا لحد دلوقت.

- ده اللي هو إني خبطتك بالعربية؟!

- لا لا أنا قصدي لما اتصرفتي بسرعة علشان تبعدي "أحمد الشيخ" عني

- آاه صحيح، هما عايزين منك إيه؟

- بعيد عنك كل كام يوم بيعزموني ع الخرارة... قال إيه... علشان يحموني من نفسي.

قالها وهو يتسند ويرمي ثقل جسده عليها كي يرتقي أولى درجات السلم لمدخل العمارة حتى وصلوا إلى المصعد الذي قامت بمهمة فتحه سارة ثم أولجته على مهل إلى الداخل وهي تتمتم بكلمات تشعره أنه طفل مما يزيد إحراجه وشعوره بالضعف أكثر...

إذ أكثر ما يكسر الرجل هو ظهوره بمظهر العاجز أمام عيون امرأة...

تكلف هو بمهمة اختيار الدور الثالث كتعبير منه أنه لم يمت بعد فهو مازال حيًّا يرزق قادرًا على فعل مثل هذه الأشياء..

مرت الثواني في هدوء حتى توقف المصعد أمام الطابق الثالث فتحت الباب سارة فشرع دون إنذار ملحد في الخروج لكنه لم يأخذ في الاعتبار أن جسده خائن بالفعل، كبحه الألم عن الحركة مع أول تحرك له في الخروج مما

أربك سارة التي لم تفهم لماذا تصرف هكذا فمدت يدها أسندته وساعدته على الخروج من المصعد ماشين ثلاث خطوات ليصل أمام باب الشقة أخرج مفاتيحه التي كانت موثوقة في عروة بنطلونه بميدالية... فتح الباب الذي صنع صريرًا مسموعًا كأنه مقدمة فيلم رعب...

دخل الاثنان في محاولات من رحيم لفك جسده من سارة التي تأبتطه كأنها أم كلبشت طفلها ومنعته من الاقتراب نحو أنبوبة الغاز...

فلفت نظرها وهي تدخله ساندة إياه مشهد الصالة الذي بدون شك ولأول وهلة للذي يراها يظهر أنها شقة بتول وحيد لم تعرف يد أنثى أو شخص قام بترتيبها من قبل..

مكان قمة في الفوضي العارمة من بقايا أكل على الطاولة التي تتوسط الصالة وأسفل الطاولة كرسي يتحرش بها يختبئ أسفلها ويوجد عليه قشور فواكه متعفنة من الركنة وزجاجة ويسكي ممتلئة للنصف قام هو بنقلهم عن الأريكة التي تنتحي أسفل نافذة المنور المقابلة لباب الشقة...

الأرضية عبارة عن بلاط مَكسي بملابس داخلية وخارجية لا أحد سيميز فكلها عفنة مع زجاجات من البيرة وكاسات من الخمر وعلب سجائر وسجائر، وكأن الطفايات اختراع حديث أو غالي الثمن فيرمي أي شيء على الأرض، سلوفان ديلفري، بقايا أكل الديلفري...

مكان مقزز ويصيب بالإحباط ولكن هيهات فسارة كل هذا لا يحبطها بل بالعكس تمامًا يعطيها الأمل في كونها ليست البائسة الوحيدة، ولكنها ستظل أنثى ولا شيء يميز الأنثى أكثر من الفضول... إنها الأنثى... فتساءلت وهي تغزو تلال القذارة ما الذي سبَّب كل هذا الإهمال لهذا الشاب؟ ما القصة خلفه؟ وبات الأمر معها لا يقتصر على مجرد (جدعنة)

أو تكميم ضمير صارخ على فعلتها مع هذا الشاب المسكين...

شعرت بجو الكآبة التي تحفظه عن ظهر قلب وتعيشه رغبة منها في عدم العيش ورغبة أخرى في قطف الحياة والمتعة، مشاعر مختلطة اجتاحتها كالعادة عندما دخلت الشقة وهي تسند الشاب إلى أن وصلا إلى الكرسي الذي كان غير أهل للجلوس عليه فغيرت رأيها وأسندته إلى أن أرسته على الكنبة البالية بهدوء لئلا يتألم، ولكن الشاب وهو ينزلق حمله من على جسدها وتقوس ظهره استعدادًا لوضع الجلوس، شعر بألم قاتل يعدو داخل عظامه كالفرس الجامح ضاربًا جانبه الأيمن كالمرزبة...

وجع توقف عنده الزمن جعله ينتظر الثواني حتى يرتخي مثل وجع الشد العضلي ولكنه لم ينتهِ وصل لزروة الـ آاه واستمر الأمر حتى صار أنينًا يخرج من بين أسنانه المصطكة على بعضها...

وجهه مقتضب تمامًا وكأن عظامه تتكسر ألف مرة في اللحظة ألمه جعل كل عروقه تنفر وتظهر...

فحاولت سارة أن تضع يدها على كتفه كي تسند ظهره ليتمدد على الكنبة بدلًا من وضع الجلوس المؤلم فارتاح هو على يدها وعندما أرسى ظهره ليتمدد على الكنبة فلتت منه صرخة عفوية بصوت متألم عميق أتى من داخله ولكنه تمدد أخيرًا...

سارة عندما سمعت ورأت صوته وألمه غالبتها الدموع من وجعه فسقطت دموعها على وجنتيه... كانت دافئة وسريعة تسقط من عينيها دون صوت أو نشيج، مجرد دموع صامتة تتساقط من عينين تنظر لهذا الشاب الذي شعر بالشيء الذي يقطر على وجهه كأنه نديف مطر فانفرد حاجباه قليلًا كي يفتح عينيه منسحبًا منه اقتضاب وكرمشة وجهه

تدريجيًّا ليرى عيني سارة تنظران له نظرة عطف وحنان غامرة ودفينة خلف ملامح وجهها الطفولي وأنفها المحمر كَلُب الرمان...

أمومة فاقت خبراته الشعورية تجاه الإناث... فالأنثى الكائن الوحيد الذي عندما ينظر بصدق لشيء ينحي الشيء طوعًا... فقال لها وهو مشدوه من انبعاثات نظراتها التي أسرت كل خلية فيه...

- شكرًا

فحركت فمها لترد شكره ولكن دموعها سقطت بسرعة على وجه الشاب عندما شاء أن يتحرك فكها، فألجمتها الدموع ومسحتها من على وجهه بيد وباليد الأخرى مسحت دموع وجهها وشنت مخاط أنفها وهي تمسحه في كُمها بعفوية فتاة في الثالثة من عمرها ثم قالت له..

- "أنا آسفة، والله مكنتش أقصد خالص أعذبك كده. أنا عايزة أطلب منك طلب، أنا عايزة أساعدك وأنت مش عايز تروح مستشفى فاسمحلي أقعد معاك كام ساعة أطمِّن إنك كويس وبعد كده همشي فورًا... وصدقني أنا عارفة إنك مش طايقني وبتقول في نفسك منها لله بس أنا والله مقصدتش.. والله مقصدتش"

حينها انهارت في البكاء منحنية على صدره برأسها وهي تجلس بجانب جسده المُمَدد على الأريكة، مثل طفلة تجري في لوعة نحو صدر أبيها عندما تُحرج، دموعها زادت ملابسه بللًا، فتردد الشاب في فهمه للأمر، هل هي تمثل في مسرحية وأخذتها الحمية والدراما أم هل هي عذبة ونقية لهذه الدرجة من التلقائية والحساسية التي أظهرت أنها هي من تحتاج إلى من يساعدها... بكاؤها واهتزازت نشيجها ونحنحتها وصوت عياطها الأنوثي وهي تبكي... أثار داخله الصدق والعقل والقلب وكل أجهزته

الإنسانية فالرجل عندما يرى أنثى تبكي على صدره يتحول إلى مَسحور أو مَمسوس ينفذ كل ما يطلب منه في هذه الوضعية التي معظم إناث العالم تستغلها... فالرجل في هذه الحالة يشعر أنه إله وهذا الكيان الأنثوي يترجاه وما من شيء يشبع الكبرياء الرجولي إلا الاستعطاف فما بالك عندما يأتي اللجوء من كيان أنثوي بكل جبروته الجمالي يرتمي على صدر الرجل ويتخذه ربًّا... وإن كانت توجد نقطة ضعف لدي الأرباب فهي الصلوات والتضرعات... حينها لا يتردد الرجل في الاستماع إلى صلوات النداهة التي سحرته وجعلته إلهها وهي في الاساس رَبَته... ولكن الأمر هنا تطور مع سارة لدرجة أنها تمددت بجواره ورأسها مازالت على صدره وجسدها تكور في وضع الجنين كأنها قطة نائمة في الشتاء... جسدها بموازاة جسده على الكنبة التي لا تساع إلا جسد واحد وإخذ نحيبها يعلو وبدأت يداها تنغرس في صدره بحدة كأنها هي من تتألم...

الوضع كان للشاب غريبًا ويقارب الحلم، توجد فتاة بجواره المفروض أنها صدمته تبكي وتنتحب على صدره كمريض يستأصلون كبده دون مخدر... بكاؤها مشوب بألم غزير... فمد هو يده على شعرها ليهدئ من روعها متجردًا من آلامه ومعاناته على خلفية رأسها احتواها بيده فورًا... فسمع نشيجها يزداد بكل لمسة يمسها بها فتردد وأبعد يده ولكن سارة دون أن تدري مسكت يده وأرجعتها على رأسها وازداد بكاؤها جدًّا كالمسوسة ويداها مسكت في صدره كأنها نشبت ولن تخرج إلا بالدم... سارت الريبة في نفس الشاب أكثر وأكثر فمسك برأسها أكثر كرد فعل طبيعي عن جهله بما يحدث كما يمسك الحاوي برأس الأفعى كي يتقي شرها وغدرها لكن هذه اللمسة وصلت بصورة خاطئة لسارة ففي لغة التلامس إذا ضغطت على مؤخرة الرأس يُعطَي للملموس

شعور بالراحة والتسليم مثل القطة التي تتكور وتنشل عندما يمسكها أحد من خلف رقبتها... فحركت وجهها نحو رقبته ليلامس جلد أنفها الممخط عنق الشاب فيستشعر القشعريرة تسري كاللصوص في سلسلة ظهره، وسمع صوتها وهي تقول بصيغة أمر ممزوجة برجاء باكٍ

- متسبنيش.. أرجوك متسبنيش.

حينها الشاب لم يفهم شيئًا من كلامها المبهم فهو لا يعرف من هذه ولا هي تعرف من هو مجرد صدفة غريبة ألقته في وجهها فألقت هي كلها في وجهه ولكنه من دافع الإنسانية داخله وبتلقائية قال لها...

- متخافيش أنا معاكي، مش هسيبك بس انتي اهدي، هدّي أعصابك.

فحركت الفتاة جسدها بعفوية لترى وجهه فأصاب ثقل جسدها جنبه الموجوع وحقوه الأيمن مما جعله يصرخ فجأة دون سابق إنذار "آاه" بألم شديد فانتبهت سارة من سياحتها في أغابير لم تكن مدركة إياها وارتبكت حينما أدركت أنها تتحامل على جسده المكسور فرمت بجسدها من على الكنبة فانزلقت إلى الأرض وهي تنظر إليه نظرة مفادها "أين أنا" وماذا حدث".. ارتاب الشاب من ردة أفعال هذه الفتاة ونظر لها باستغراب واستفهام وردت هي بنفس النظرات لا أحد يفهم ما يجري إلى حين أن استنارت عيناها كأنها تذكرت شيئًا من سنوات فتغيرت ملامح وجهها إلى ملامح محرجة متغاضية عن النظر في عيني الشاب الذي انتشله من استفهامه وجعه وألمه الذي استحوذ على عقله من هيمنة الرضوض على جسمه... التكسير يمزق هذا الجسد... يريد أن يتحرر من الألم الذي يقضي على كل شيء حوله نتيجة عدم رغبته في

مزاولة الحياة بهذه الأوجاع المتكالبة على جسده... حينها زاد الوضع بشاعة ملابسه المبلتة التي لم يبدلها فكانت كالرصاص تؤذيه من برودة الجو فقرر حينها أن يخلع الجاكت الجلدي وما تحته حتى أصبح عاريًّا من نصفه الأعلى ولم يبالِ بوجود الفتاة فهي ترى جيدًا أنه ليس في وضع جيد للاغتصاب، ثانيًّا هو لا يخجل من جسده فبنيته قويمة ومنسقة... نظرت له سارة بأسى وقالت له بعفويتها الطفولية...

- إيه هو جنبك اتكسر؟

- اتكسر؟! ليه شايفاني كباية؟!

قال هذا وهو ينظر لها نظرة من وصل لمرحلة الذروة من الاستغباء فانكمشت كالطفلة التي هزقها المدرس أمام طابور الصباح وقالت

- لا والله مش قصدي، أنا عايزة أطمن عليك مش أكتر، أنا آسفة متزعلش مني

فنفخ الشاب في الهواء من سوء تعامله معها فهي حتى الآن لم تفعل له شيئًا باستثناء بلاهتها الطفولية التي تنم عن طيبة... حتى صدمتها له بالسيارة هو أيضًا أخطأ فيها حينما مشى كالتائه وسط الجسر... شعر بالذنب من فظاظته معها فقال لها بنبرة حادة نسبيًّا ليحثها على تقدير ألمه وعذره...

- هاتيلي كيسين فوار "كاتا فاست" هتلاقيهم جنب الرسيفر، وهاتي كباية ميا ومعلقة من المطبخ...

طفرت الفتاة من مكانها تحركت نحو التلفاز بلهفة كأنها في برنامج مسابقات أسرع عمل كوب فوار ثم جرت نحو المطبخ وفي ثوانٍ أتت

بكوب الماء وكيسين الفوار في يديها تمدهم له وهو يحملق فيها بعينين مرتابتين وتحاول أن تدرك ماذا يحدث فباغتته هي بكل براءة...

- تحب أفتحهملك؟

فهز رأسه وهو ينظر لها هزة بلهاء بفم مفغور وملامح لا تعرف ماذا تقول... فتحت سارة الكيسين وصبتهم في الكوب ثم جلست بجانب كتفه على الكنبة وسندت ظهره حتى ارتفع قليلًا فباتت رأسه أمام صدرها مباشرة ومدت الكوب نحو فمه حتى يشرب... فشرب وهو يتقزز من طعم الفوار المر فسمع صوت سارة فوق أذنه مباشرة بنبرة أمومية أكثر من كونها أنثوية

- "بالهنا والشفا حاسس إنك أحسن دلوقت؟"

فضحك الولد فور سماعه كلامها ضحكة عفوية بترها الألم وقال لها ورأسه مغموس في صدرها كأنها أمه

- "انتي غريبة جدًّا على فكرة أنا لسه واخد الفوار، مكملتش ثانيتين أكيد يعني مش هيجيب نتيجة أنا مش واخد كوكايين"

حينها صدحت ضحكة عفوية منها، ضحكة عالية وعفوائية، ضحكة من القلب كانت تتلمسها من سنين فوقع صوت قهقهتها على أذنيه بسحر روحي سبى عقله إلى عالم آخر من الجمال والانتشاء، فهناك بعض الشخصيات ضحكتها تبعث الحياة في الموتي وزاد على هذا هدهدة صدرها التي كانت تلامس وجنته وهي تضحك... مصداقيتها وعفويتها أشعرته بالانتشاء والجمال كأنه قضى على هروين العالم بشمة واحدة...

فدارت في رأسه جنان مغلفة بالزهور وصوت سارة تجسد في طيات

عقله كأنه وردة تخرج منها أريج يبتلعه داخل فواحته فيبعثه كالضباب روح هائمة في وجد هذه الفتاة...

اعتدل على مهل إلى أن صار وجهه يواجه وجهها فتوقفت سارة تدريجيًّا عن الضحك وهي تنظر في عينيه العسليتين ذات الرموش الكثيفة وهو ينظر لها نظرة حادَّة لا معنى لها إلا أنه ينوي أخذ شيء منها فمد يده على وجهها وهو يغوص في ألمها ووجعها الذي أصاب عينها المتورمة فحرك أصابعه وهو يكاد يلامس إصابتها فأغمضت الفتاة عينيها كما يغلق الطفل عينيه لمن يأمن كإشارة منها للتسليم وهي تدعو من جوف الحوت أن يفعل ما تريد ولا يفعل ما تتوقع...

باغتت يده ببطء شديد عنقها فتفجرت رعشة هزت جسدها بالكامل حتى وصلت يده إلى أول صدرها وأسفل عنقها، شعور لم تشعر به من قبل لكنها كثيرًا كانت تتخيله...

الشاب يستكشف ماهية القوة التي تستحوذ عليه في هذا الوقت فهو لا يريد أن يعري جسدها ولا أن يطأها ولا أن يُقَبِلها هو فقط يريد أن يرتمي كالمنتحر من أعلى سفح تلة على بحر ليغرق في حضنها...

الفتاة كانت عيناها جاحظتين تنظر للفراغ كأن حاسة الإبصار لديها توقفت... كل مراكز استقبال الإشارات في دماغها وحبلها الشوكي ينتظر الموقع والطريقة التي سيضع الشاب بها يده عليها... صدرها من الداخل أصابته السخونة شعرت بجبل يطبق على قلبها يسجن قلبها الذي من شدة ضرباته صار يضخ الدم بإلتياع...

الشاب مستمر في استطلاع هذا العالم الذي يحتوي عقله ويجرفه جرفًا مع تيار العطف الذي يتلمسه ببنانه على نهديها اللذين ارتجفا من بطء

حركته عليها وهو يحرك وجهه نحو عنقها حتى تستنشق حواسه أريج جسدها الفائح من عنقها...

كلبشت سارة يدها خلف رأسه وضغطت على رأسه نحو عنقها ورفعت رأسها للأعلى مما جعل رائحتها تستشري في خياشيمه...

رائحتها غيرت مسار مشاعره التي كانت تعتريه من ليلة واحدة فثار الشاب كالليث الذي استنشق رائحة نداء التزواج عند إناث القطيع فحرك جسده بالكامل نحوها ولف يده حول خصرها بعنف فقابلت عنفه بعنف يدها التي وجهت رأسه نحو حضنها وراحت تتنفس هي احتياجه لها كمنبع حنان لا كدمية جنسية...

أصبحت كالمحمومة تحدق في سقف الغرفة لا تفكر في شيء إلا أنها تريده أن يمتلكها تريده أن يتجرع حبها كالظمآن وأن يلتمس عطفها كالرضيع عندما لا يعرف السكات إلا في طيات نهدي أمه... أخذتها نشوة مشاعرها وغرست أظافرها في جسده الموجوع كاللبؤة الجائعة وفحت في أذنيه "حِبني، اعشقني"...

فقابل الشاب همجية مشاعرها بعنف احتضانه لها... صار يعتصرها وهو يحرك أنفه على رقبتها يريد أن يستنشقها بل يريد أن يستذيبها لتصير داخله أو هو يصير داخلها... شعور غريب بالحاجة للالتحام الوجداني سببته رائحة جسدها له وكأنه يريد أن يغوص داخلها... يستخلص رحيقها كالمجذوب لم يكن يدري ماذا يفعل هو كان مسبيًّا كأسير بيت فرعون... فعبقها وعطفها اخترقاه وكلماتها الأخيرة له لم تدع له المجال كي يفكر إلا في غَرف الحياة وابتلاع رحمة جسدها عليه كأنه سقيم عطش وسط بحر مالح وفجأة أمطرت السماء العذوبة في رائحة جسدها الشبيهة

بأكسير الحياة... هو رجل وهي امرأة وليس كل ما يطلبه رجل من امرأة جسد، فهذا الشاب دُفن في حضنها ووجدانها كأنها دوامة نورانيه ابتلعته دون رحمة نقلت عقولهم من عالم المادة الي عالم العشق الشعوري...

فالفتاة لم تقابل في حياتها رجلًا يلتمس احتضانها... صريحًا في عرض احتياجه لها ولعطفها لا يأخذ جسدها سد حاجة بل يستجدي حنينها له... أرادت أن تجد من يعاملها كالمنبع فكلمة السر عند المرأة هي "المنبع" قل لها أنها منبع الحنان بإستجداء وستغمرك المرأة بسيول من جميع النواحي... ابتهل لعطفها وتلمسه ستهتم بك كأنك روحها... ستعبدك باحترامك لعاطفتها وستسجد لك إكرامًا عندما تقهر كبرياءك ذبيحة لطلب غفرانها وودها... ستقدم كل شيء حتى جسدها ستحتسبه هدية تقدمه صباحًا ومساءً بامتنان غير محدود ما دام الرجل يرعاها من الداخل... مقبض التحكم لديها هو الداخل... هكذا هي سارة، كانت تتفكر كل حين أنها تريد من يشبع بها ليس من يشبع منها... من يستكشف ما تخبئه لشخص واحد فقط من مشاعر موضوعة في قنينة طيب محفوظة داخل ضلوعها تحتاج من يكسرها حتى تفوح له بعوالم أخرى من الأحاسيس والتعاملات... كانت تحلم أنها إذا وجدت هذا الشخص لن تعامله مثل معظم الحبيبات بل كانت ستعبده، ستخافه عشقًا لا عن عمى لكن عن بصيرة ومعرفة حقة... ستؤمن به وبقدرته على أنه إلهًا لها صنعه إله الآلهة وملك الملوك كي يحميها ويرعاها...

هذا ما أدخله الشاب في عقلها وهو يعبث بجسدها كأنه عجينة طرية يقضم منها ما يشاء من رائحة جسدها التي جعلته فعلًا محبوس داخلها غاب تقريبًا عن التفكير لكنه مازال واعيًا لشيء واحد وهو عبق جلدها... لم يفرق معه أي جزء من جسدها عن الآخر صار جسمها بالنسبة له كأنه

عضو واحد يفرز نسيمًا يستحوذ على روحه كسجن مؤبد...

الفتاة سكرت في يديه فهما يجولان على جسدها بعشوائية منظمة، جعلتها تتخيل أن هذا الشاب هو وليفها وحبيبها يجلس أمامها على ضفة بحيرة وسط غابة مسيجة بالنخيل والشجر وهي أمامه عارية دون أي شعور بالخجل... تنحني عند قدميه لتقبلها فيأبى الرجل ويتخلى عن جلسته المهيبة ويشاركها انحنائها ثم يُقبل هو كفها فتدمع عيناها من الفرحة فتذهب وتأتي بماء من البحيرة بين يديها عند قدمي حبيبها وتشرع في غسيل قدميه حينها ينظر الرجل في عينيها برضى فتقبض على هذه النظرة وكأنها مبتغاها وتطفر وهي تغني بنغمات طفولية من أحبني رضى عني واحترم اتضاعي وبجل إكرامي له... حبيبي قبل يدي بثغره الساحر... من أحببته لم يذلني عندما خدمته بل أكرمني ورفعني...

انتشلها من سكرتها صوت طرقات عنيفة كأنها عقاب الله عليها... استمرت الطرقات فالتفت الاثنان نحو الباب سارة تشبثت بالشاب والشاب لا يتحرك حتى أصبحت الطرقات عبارة عن محاولات لفتح الباب بالقوة...

خافت سارة وارتجفت وأبدل الاثنان مواقعهما دون قصد... زادت الطرقات والمحاولات العنيفة لفتح باب الشقة لدرجة أن الباب بدأ يتخلخل ويهتز بصورة قوية تنم عن شراسة من يحاولون فتحه بهذه الغوغائية فتحرك الشاب نحو الباب كي يدعمه حتى لا ينكسر ولكن صداح الخبط أصبح مخيفًا كأنه قرع طبول الموت في استهلال حرب ضروس...

الفتاة مفزوعة واختبأت في حضن الكنبة بجسد انكمش عفويًّا

وعيون فزعة ويدين ترتعشان إثر التغيرات العقلية والتقلبات الشعورية التي حدثت لها في الدقائق السابقة حتى هذه اللحظة، انكسر الباب تقريبًا فظهرت بعض الوجوه ومن ثم انخلع تمامًا ورحيم صاحب الشقة رجع إلى وسط الصالة مرتديًا بنطاله الجينز وبدون ملابس من الأعلى فدخل عليه ستة رجال طوال القامة وضخام البنية ملتحين جميعًا ولكن شواربهم مجزوزة...

انقض خمسة من الستة على الشاب مكتفين إياه من الخلف وهو ينظر إلى السادس الذي يدخل ويداه خلف ظهره ينظر له بابتسامة مشمئزة...

ملامح هذا السادس تختلف عن الآخرين نسبيًّا فوجهه لا يميل إلى العدوانية مثل الآخرين بل يميل إلى المكر والحيلة...

ناداه أحد الخمسة الممسكين بالشاب وقال له

"هذا هو الملحد يا أمير (يوسف)"

فزام وهو يقول "مممم"

متجهًا ناحية سارة التي سمع نشجيها الطفولي وإخذ يتنقل بنظراته ما بين الشاب وما بين سارة حتى تكلم بصوت واثق وهو يمد يده ناحية سارة وينظر بعينيه لأشباهه...

"زانية، أترون ما آخرة الإلحاد يا أخواني، زنى ودعارة وزندقة ومن بعدها عبادة الشيطان، يأتي مثل هذا الملحد وينشر أفكاره على الملأ في صفحة إلكترونية يدعو فيها الناس إلى المِجون والاستهزاء بالمقدسات وشرب الخمر كما ترون فينتشرهؤلاء الملاعين وينضم له الكثير ثم الكثير في بلادنا وحدودنا ويسممون عقول بنينا وبناتنا ويسيطرون على

عرضكم فيسحرون نسائكم إلى هذا"

وهو يشير إلى سارة قال كلمته الأخيرة، فقاطعه الشاب بعصبية وهو يحاول أن يتحرر من عشرة أيادٍ

"ورحمة أمي لو مديت إيدك عليها لأقطع أمك حي يابن الـ(.....)؟"

حينها كال له الخمسة رجال ضربات في كل جسده بعنف ضباع تتنازع على جسد جاموس ميت مما أدى إلى إثارة الرعب في نفس سارة فقامت تجاه رحيم لنجدته ولكن أتاها اثنان من الخمسة ليمسكانها بنظرات مختلطة ما بين استحلال لحمها كسُرية وما بين انتظار أوامر الأمير الذي أخرج خنجره اليمني من سيالة جلبابه الأبيض وحرره من غمده فظهر نصله الفضي يلمع كأنه نجم الموت...

سكت الجميع عند هذا الفعل منهم من سكت رعبًا كسارة ومنهم من سكت ينتظر مشاهدة الفقرة الرئيسية في الإرسالية الإلهية ومنهم من سكت ليلتقط أنفاسه من بعد نوبة الضرب المبرح التي تعرض لها جسده ولكن الصمت لم يدم طويلًا حيث أمر الرجلين بتكتيف الفتاة فدمعت عيون سارة دون أي صراخ أو مقاومة فنظر الشاب ليجد الرجلين يسقطونها كالعجل الرخَص يوم الذبح فصاح بصرخة موت وهو يقول "سيبوها مالهاش ذنب دي خبط....".

فسد أحد الثلاثة فمه بيده، ليصرخ الشاب صرخات مكتومة وهو يحاول التخلص من الثلاثة رجال الذين يكتفونه ولم يعطه أحد فرصة بل بعد ما أناخوا الفتاة وأناموها على الأرض كتف أحد الرجلين قدميها والآخر كتف يديها على صدرها وهو يسترق لمسه والضغط عليه فضرب

رحيم الأرض بقدميه وعافر الثلاثة بقوة جريح في وضع حياة أو موت وكانت هذه القوة موازية تقريبًا للثلاثة رجال من همجية وجدية الموقف الذي كان يرى فيه سارة بعينيه فهو كان لا يشعر بشيء إلا أنه يريد أن يتحرر كي يبعد الأذى عن الفتاة من يد هؤلاء غير المتوقعين ولكن حينها باغته أحد الثلاثة بضربة خلف رأسه فاختل توازنه وارتمى جسده شبه مخدر مكتفٍ بالنظر في وجه الأمير الذي ينظر للشاب بعينين مغموستين في بحر شماتة فهو مستمتع جدًّا برؤية كل الأمور تحت يده بتوكيل إلهي يسيطر على الجميع...

الشبع الذي يقتاته من التسلط على الكل حتى أمر الحياة والموت هي قرارة العقاب والمجازاة تحدث بإشارته... سلطة لا محدودة لأن مصدرها غير محدود تحث ذاته إلى الاعتقاد بأن كيانه أصبح جزءًا من أجزاء الاله السرمدية والعلوية اللانهائية...

يعتبر نفسه أداة العدل وأن هذا الشاب وهذه الفتاة جزء أدنى من البشر لأنهم خطاة وهو مؤمن بالله وبالشريعة التي أعطته الحق أن يزيل الرجس وأن يفرض الحق ويكون يمين القوة بالقصاص والانتقام من أعداء الله الكفرة... فينال حينها رضى الإله والجماعة اللذين برضاهما سيصبح ذا قيمة وربما في يوم ما يكون أمير المؤمنين خليفة الحق الذي سوف يغزو به الله البلاد فيصبح الملك ووريث عرش عينه له الله منذ الولادة...

الله لا يفكر إلا فيه وجعل الناس أجمعين محتاجين للهداية التي نالها هو مباشرة من الله ورسوله... هكذا كانت عقيدته الفكرية في كل حين، لذلك اقترب من جسد سارة حتى يتمم التطهير فركع على قدميه وأمسك

بيساره رأس سارة المستسلمة تمامًا لأيدي الاثنين الذين يكتفونها لكنها ارتعشت وشعرت بخوف عندما وضع هذا الشخص يسراه على رأسها وهو يقول لها...

"توبي أيتها الشابة قبل القصاص لعلك تستميلين رحمة الإله بتوبتك فيزيح عنك عقابك في جهنم"

رحيم كان يراقب المشهد وهو خامل الجسد، روحه تصرخ ونفسه تنازع كبده وقلبه وجسده كي تتحرر لتحد هذا اللغط الذي يحدث أمامه، فمهما حدث لهذه الفتاة فهو لن يسامح نفسه بأنه أقحمها في حياته ونالت عقابه بهذه السلاسة التي يراها في عينيها كأنها كانت تريد هذا لكنها تخاف الألم والوجع والكيفية وكأنها تريد الأمر أن يحدث ولكن بسلام، لذلك لم ترد على الأمير بأي كلمة بل كانت تحملق فيه منتظرة ما سيفعله فلم يتوانَ هو في أداء رسالته إذ يجب أن يكون الأمير بصورة عظيمة أمام رجاله وها هي الفرصة أتته فوضع الخنجر على رقبة سارة التي بدأت ترتجف وتقاوم خوفًا ورعبًا من الذبح وجاءت تصرخ فنقل هو يده من على رأسها إلى فمها ليكتم صوتها ونظر إلى الشاب نظرة تشفٍّ وبدأ النحر بخفة فنفر الدم من جلدها وشريانها في وجه الأمير والشخص الذي يثبت يديها فصاروا كالجزارين المتكاتلين على ذبيحة فناوأت الفتاة وحركت رقبتها على السكين من غلبها فاندفع الدم إلى أن وصل على وجه الشاب الذي هاج وثار وإخذ يئن كأنه هو الذي يُذبح ويقاوم حتى قاوم فعلًا واستطاع أن يفلت بهيجانه الحيواني قليلًا إلى أن لحقه أحدهم من قدمه فسقط الشاب على جسد الأمير مزيحًا إياه من فوق سارة التي أصبح وجهها مقابلًا لوجهه الذي يعاني من رؤيتها وهي تبصق الدم من فمها وعنقها إثر النحر البطيء، فهذا "الأمير" أراد أن يعذبها دون رحمة

لأن إلى هذه اللحظة لم يكن قد نحرها بالكامل بخنجره الذي أمسكه منه رحيم لحظة رؤيته وجه سارة...

الأمير اغتاظ جدًّا إثر الربكة التي حدثت أثناء عمله المقدس فأمر الرجال الثلاثة أن يسحبوه بعيدًا عن سارة التي تئن وتنزف من عنقها الدماء بغزارة جعلت جسدها يستحيل إلى اللون الأبيض الشاحب فعندما جاء الرجال من الخلف كان الأمير قد استعاد توازنه ووقف ليصبح أمام باب شرفة الصالة فانطلق رحيم قبل تحكم الرجال فيه كشمشون الأعمى قائلًا عليَّ وعلى أعدائي ليجري نحو الأمير غارسًا الخنجر في بطنه دافعًا إياه نحو الشرفة كأنه ثور محبوس التحم جسده بجسد الأمير ليأخذه معه في رحلة إلى الأرض من شرفة الطابق الثالث...

6

مضى غريب الظاهر حيث لا يدري الذي هو وطنه ومتواه في الفلوات الفسيحة والجنان وفراديس الشوارع المزركشة بسلات القمامة هناك يضطجع بسلامة وينام غير عابئ إلا بما يدور ويهزع في ذهنه الرابض أسفل جمجته... اعتزل العالم والعلماء والعلم والناس... فضل أريج زهور المنتزهات المشوب بعفن بواقي ذرات السمك المملح والبصل، وألاعيب الكلاب الضالة التي لا تبغي إلا السيطرة على مناطقها وإناثها...

الكلاب التي كان يسمع طوال الوقت أنها مشهورة بالوفاء والإخلاص لقانيها وراعيها... لكنه اكتشف فيها من كثرة معاشرته لها في الأزقة والبساتين أنها تمتلك أصل الصلاح والأخلاقيات وهي "الشجاعة" فهو كان يرى الشجاعة هي السمة التي تميز الإنسان الكامل... فهو فكر مرارًا وتكرارًا لماذا الإنسان يكذب... الإجابة بسيطة، لأنه غير شجاع لمواجهة عواقب الحقيقة مثل النعام الذي يدفن رأسه في الرمل متوهمًا بعمى بصره عن العالم أن العالم قد عمى عنه... وفكر أيضًا لماذا الشخص يسرق؟ أيضًا في قلة الشجاعة لمواجهة الواقع والمغامرة فالإنسان يخاف من الفشل لذلك لا يحاول فيلجأ للطريق الأسهل الذي لن يخسره شيئًا

إذا فشل ألا وهو السرقة... ولا يعلم أن الذي يحاول ويفشل ثم يعود ويحاول فهذا هو الناجح، إذ أنه سيأتي يوم وتصيب محاولاته الهدف حتى ولو بمحض الصدفة، فإعادة المحاولة هو النقيض الشرعي لكلمة الفشل وليس لفظ "النجاح"...

في مثل هذه الأشياء كان بمظهره المقزز هذا يفكر من بعد ما تركه الشاب وكأنه بركان يغلي تحت طبقات الأرض السفلي...

شحاذ لكن رأسه لا تتوقف عن التفكير في مثل هذه الأشياء والتأملات منغصة عليه أصوات بطنه التي تنعر في الجوع والأثم، إذ لم تهرس معدته شيء لمدة تزيد عن ثلاثين ساعة فقرر أن يذهب إلى أحد السلات التي تقع تحت مطبخ أحد فنادق وسط البلد الشهيرة.. إذ هناك يجد بواقي اللحم كاملة وأحيانًا الفاكهة مأخوذ منها قضمة واحدة أو نصف وإن كان سعيد الحظ كان يجد أحيانًا بواقي المياه الغازية في علب بلاستيكية وبهذا يعتبر نفسه قد أكمل أركان وجبته المفضلة كمتشرد طاعن في السن... فشد الرحال وحرك أوصاله يمشي ناحية نداء الغريزة بجوار الكورنيش ذي الماء المنخفض والبرد اللاذع والمياه السوداء التي تتراقص عليها إضاءة الشوارع برقة الفالس وكلاسيكة التانجو... باحترافية وفن مجرد من الاصطناع...

والباعة الجائلين يفترشون الأرض بكرامة رزقهم وكدهم فأحدهم ينشر الذرة وهو يجلس القرفصاء يبتسم للحياة دون كلل ولا ملل يهزع بيده الحاملة مروحة ريشية على الفحم الذي يطيب حبات الذرة الغيارة بصفارها وينقلها للنضوج حتى يحول لونها بنيًّا محروقًا يدل على الكد واللذة الذي يحتويه بياض كل حبة في الداخل... بعدها ينغم ويعلن عن

فنه ورزقه بنغمة تتداخل مع باقي النغمات "حمام يا مشوي"...

فوقف "قصي" أمام هذا البائع ونظر له بنصف ابتسامة وعين حانية تقدر انعكاس ما تراه... فالتفت له صاحب الذرة وقال له

"عايز حاجة يا عم؟"

فلم يرد عليه قصي... فرد صاحب الذرة بضحكة على نفسه...

"تلقاك جعان يا مسكين بمنظرك المعفن ده، خد ده هيدفيك ويشبعك..".

قال هذا وهو يمد يده لهذا الغريب بكوز من الذرة المشوية الطازجة فانفرجت ابتسامة كاملة وهو لا يزال ينظر له ثم تركه وهو يمد يده بكوز الذرة وأكمل طريقه إلى حيث يريد أن يذهب، فسمع صاحب الذرة يقذفه..

"لهو أنت شحات وفقري كمان، ده أنت مجنون..".

فضحك قصي في نفسه وإخذ يكمل طريقه وهو ينظر إلى المياه والسماء الذين يتلاثما كلما ابتعد عنهما وكأنه ينظر لشيء كلما يبتعد عنه يتحد...

ومن هنا أتته الأفكار... هل النبذ طبيعة الطبيعة؟

فالولادة تنبذ الطفل في جسد الحبل فيوجد...

والشجرة تنبذ الثمرة من الفروع فتتكون..

الحلق ينبذ الصوت فيصدح...

الجسد يلفظ الروح فترتفع...

والعقل ينبذ الفكرة فيصنعها...

والشعور ينبذ الخوف فيكون...

هل طبيعة الطبيعة أن الاستقلالية يجب أن تكون بالنبذ واللفظ والانفصال عن الأصل؟

أم أن التفرد يتطلب البتر والألم؟..

فلماذا عملية الولادة في كل شيء هي الأكثر أهمية؟

هل لأنه الأصل يريد أن يُخلَّد فلا سبيل إلا لفصل الخلايا حتى تنمو من جديد في وقت أكثر فيحدث امتداد أكبر لوجود هذه الخلايا على قيد الحياة..!

وهو يفكر سقط منزلقًا على حجر أملس فسمع الضحكات ترجمه من مسافة ليست بقريبة فوجدهم مجموعة أولاد لا يتعدى الكبير فيهم ثلاثة عشرة عام يجوبون الشوراع والمزابل مثله بحثًا عن طعام ورصيف دافئ يحتويهم من برد الشتاء... فسمع صوتهم وهم يتملصون عليه

"بص ابن المعفرتة من كتر السرحان وقع"

فلم يبالِ وقام وهو لا يعرف يضحك على نفسه ولا يضحك على وصفهم لكنه في كل الأحوال شرع يكمل طريقه إلى هذا الفندق الذي تحتوي سلة قمامته سد حاجته من الطعام...

فمشى بمحاذاة الكورنيش الذي طالما أسره سحره وأعماله المقصصة في البشر والطبيعة في هذا الطريق الذي وجد عليه قرابة الفجر في برد هذا الشتاء رجلًا مخبولًا غيره يتأبط ذراع امرأة وبالأخرى يحمل طفلًا

صغيرًا جلسوا على أحد المصاطب الحجرية أمام النيل... الرجل يعطي امرأته قطعة بطاطا مشوية يتعالى بخار طزاجتها، فتقبلها المرأة بابتسامة وارفة تنحت السعادة على قسمات وجهها الصبوح والرجل يداعب في طفله كأنهما الاثنين أطفال لا يفرقهما غير حجم الجسد وخبرة الألم الذي يتجنبها الأب بالنظر إلى براءة وليده الغضة الذي يتشبث في أصابع يد أبيه كأنها إله الرحمة والحنان الذي يكتنفه...

لغة الملمس التي يفتقدها البالغون مختذلين إياها في نحر غشاء بكارة في ليلة يسميها البعض ليلة العمر وكأن اللمس والعمر والإنسان والعلم في هذا الفعل الدموي غير الرومانسي بالمرة...

لكنه واجب تؤديه الأنثى ويستغله الذكر البشري لإشباع رغبة مكتسبة من المجتمع... رغبة في التسلط والتحكم والشعور بالسيطرة على جسد آخر مقابل حفنة من الذهب ومكان ومأكل ويوم يسعد فيه أناس ليس لهم إلا المظهر قاضٍ...

فمشى قصي باتجاههم حتى اقترب منهم وهو يقصد ألَّا يقترب كثيرًا حتى لا يذعرهم بمنظره العفن والمريب... وإخذ يتأمل هذه العائلة المجنونة التي تخرج قبيل الفجر على الكورنيش في الشتاء حتى ينالوا من الهدوء والسعادة فقط قسطًا في هذا الفراغ والطبيعة الحرة غير المقيدة ببشر يغزون الأماكن ولا عشاق يسرقون المشاعر ولا سيارات تحمل ركابها إلى متواهم وأوهامهم...

فما أجمل الهدوء والسكات والصمت.. فعندما تصمت الطبيعة هكذا إذا فهي تغني وتشدوا... ففي هدوء الطبيعة أبهى آيات العشق تتجلى وتثور...

لاحظته العائلة السعيدة وهو يقف بعيدًا ينظر إليهم نظرة والد راضٍ عن أبناءه بنصف ابتسامة ثابتة تزين وجهه... فأخذ الزوج قطعة بطاطا ولم يخف من هذا الغريب الذي يتربص بهم... وذهب ناحيته يقدم له قطعة من البطاطا بابتسامة وفرح العطاء... فابتسم قصي ذو المظهر الرث لذلك الشاب الأب وتركه مادًّا يده له بالبطاطا ودون أن يستئذنه ذهب ليعبر الطريق إلى الجانب الآخر حيث مباني الفنادق الكبيرة والأبراج السكنية التي تطوق هذا الجانب كأنها حصن قلعة منيع لا أحد يستطيع عبوره...

فذهب الرجل الشاب راجعًا إلى امرأته وطفله متعجبًا يستمع لتوبيخ زوجته المراقبة وهي تقول...

"قولتلك ملكش دعوة بالأشكال الغريبة دي... حد عارف عايز إيه ده، يمكن مجنون يضربك ويتهجم عليا أنا والواد"

فسمع التأنيب بامتعاض وهو لا تزال عيناه على هذا الغريب الذي ذهب إلى الجانب الآخر ووقف أمام أحد حوائط إحدى العمارات الكبيرة وأخرج شيئًا ما في سرواله المهترئ وأخذ يلطخ به الحائط مرارًا وتكرارًا برسومات غير مفهومة على المدى البعيد للرؤية بالنسبة للمارة الذين بدأوا يلاحظون هذا المخبول وهو يتلبث في عملية تخريب حوائط العمارات ثم ترك الحائط وذهب ليأتي بزجاجة مياه بلاستيكية وخلال ذلك كان هذا الغريب يلفت الأنظار أكثر... فأخذ يكب المياه في فوهة الزجاجة على يده وينثرها بيده على المادة التي وضعها على الحائط... كرر هذه العملية مرتين سريعتين وبعدها بدأ دخان كثيف يخرج من الحائط وهو واقف أمامه بجسده الذي كان يحجب جزءًا كبيرًا ممَّا كان يرسمه على الحائط...

الذين يتابعونه يركضون بخفة نحوه حتى يروا ما هو سر هذا الدخان الكثيف الذي يخرج من الحائط وكأنه فعل سحرًا ما حينما رش الماء على الحائط. وحينما وصل جمع ليس بالكثير من بعض المارة في هذا الوقت المتأخر وجدوا هذا الغريب أمام الحائط والحائط مكتوب عليه بالجير الحي الذي يفقفق

"الحب والذبيحة وجهان لعملة واحدة إذ بكليهما تصير مقبولًا دون وجه حق".

حينها وجه الغريب سبابته نحو الناس الملتفين حوله وشرع يقول

"المحبة تحتوي الشر برقة فراشة أما الذبيحة تنحر حياة حتى يشفق..

المحبة تستر المحبوب من الآثام والعيوب أما الذبيحة تعري بالسلخ بسبب كمالها...

لماذا الذبيحة؟

كيف إزهاق النفس والضمير وجلد الروح بالآهات والنحيب فيه الطهر؟

لماذا الإنسان أول والطير أقل؟

الإنسان يأكُل والطير يُؤكَل..

الحكمة بدأت بجهل الآخر لا بمعرفة الأول...

والقدرة عندما لا تُسأل تَبطش الناس...

أبي مرارة تقتل وجودي بميلادي...

أمي نحيبي عند خروجي من أسفلها للدخول في الأسافل...

جدي شيطان...

وأنتم عبيد تسيرون على قضبان ولا تحيدوا إلى الشسع فتركبون على أنفسكم والفساحة بجوار أجنابكم...

أما أنا... فأنا خوار روح بارت في بئر الفظاظة والنبذ.".

صمت بعد كلامه وهو ينظر للخلاء لا على الأشخاص... والأشخاص عيونهم عليه فأردف أحدهم

"ده مجنون ولا عاقل ده يا عم" والآخر "بص هو مجنون بس فاهم بيقول إيه"

فيرد آخر "مهو لو هو فاهم بيقول إيه ميبقاش مجنون يبقى إحنا اللي مش فاهمين.".

فلوى قصي رأسه للأسفل وراح يكمل طريقه وسط عبث الآخرين في الردود وهم ينظرون إليه باشمزاز باهت...

أكمل طريقه كانت خيوط الفجر قد نسجت شباكها على أرض العالمين... التف في شارع جانبي نادته فيه النداهة لا يعلم أين يذهب فهو كان في مهمة إشباع الجوف والحشى لكنه أخذ من روحه دون إرادة...

تبعت قدماه صوت ذهنه المهووس وقلبه الذي ينبض بتؤدة للخلاص... عيناه فتحت فنظر السماء فوقه إذا هي تنشق إلى نصفين كل نصف يلتهب في سحاب يتحرك بسرعة جنونية وزوابع وأعاصير كونية تخرج من فتحة الشقين كأن السماء تحولت إلى فرج أنثى يغلي ويتمخض نيران ولظى في الشق الأيمن والشق الأيسر يخرج منه أنهار من الماء الأخضر والسحاب الأبيض يتلاثم الشقان كأنهما جفنا عينين برموش

من النار والماء ثم ينشقان مرة أخرى ليخرج منهما جسدان أحدهما أبيض والآخر أحمر، ملاكان هما أو شيطانان لا يعرف، فالسماء فوقه تريد أن تبتلعه وهو يرى الجسدين يتصارعان والسماء المجنونة تنظر بغضب تعلن عن استياء القدير واحتماء غضبه من الصراع الضروس الذي اختارا فيه الجسدان ناحيته ليكملان فيها الصراع هما يقتربان والسماء تتحدث وهو يقف مشدوهًا يرى السماء والملائكة والشياطين بل رأى عيني الله في وسط الجفنين كانت تنظر عليهم هم الثلاثة فهو أصبح داخل المشهد يتجهون نحوه بسرعة مذنب يتجه لتدمير مقصود لا يسيطرون عليها يسقطون وهو يقف لا يتحرك لا يقدر شل في مكانه إلى أن سقطوا عليه وصار السواد...

7

صمت وعدم وسراب ظليم أسود عدمي، إيقاع طبول رتيب يسير في اللا شيء مسموع ومدرك، بل وفعال ليثير الرعدة في النفس بصوته البطني العميق...

تظهر بالتدريج حدود لهيب يدور صانعًا دائرة مضيئة بفعل اللهيب الأخضر الرائق الذي لا يشوبه أي لون آخر ويظهر داخل الدائرة "يوسف" وهو غير مدرك لأي شيء حدث له وأتى به إلى هذه الدائرة الخضراء...

وبعدها تدريجيًّا بدأت في الظهور دائرة أخرى تحبل في "رحيم" الذي بالكاد يرى من فرط الظلام وعدم وجود مصدر للنور غير اللهب الأخضر الذي يبلغ قطر الدائرة الذي يصنعها ذراعين تقريبًا...

وبعد رحيم جاء دور الدائرة الثالثة في البزوغ والانبثاق من العدم وكانت داخلها سارة موجودة في الوسط بين يوسف على يمينها الإمام ورحيم على يسارها بحزى يوسف...

كان الثلاثة ينظرون إلى أجسادهم باندهاش شديد يفعلون نفس

الحركات تقريبًا يحركون كفوف أيديهم وينظرون لها وهي تتحرك فيتأكد كل منهم أن له جسدًا ثم ينظرون إلى أرجلهم فيرون أنهم بشريون ويكررون نفس الحركات بعته وبطء من حيرة انتباتهم إثر وجودهم في ما يحيطهم...

فجاء موعد ظهور الدائرة الرابعة وهي التي كان بداخلها "قصي" وكان مكانه مقابل سارة حتى تم شكل علامة زائد، سارة وقصي مقابل بعضهما البعض بالطول ويوسف ورحيم مقابل بعضهما البعض بالعرض، لا يشوب ظلامهم جميعًا غير اللهب الدائري مع قرع الطبول المخيف الذي يعطي خلفية سمعية مرعبة تحضرهم للخوف والرعدة والانزعاج...

وزاد على ذلك... شعورهم المفرط بالبرد الذي عززه وجود بخار دائري على حدود النار المحيطة بكل واحد منهم ليعلو البخار كالجدار حولهم...

فارتجفت أجسادهم رغم اللهب المحيط وبدأ التنميل يصل إلى الأطراف التي مالت إلى اللون البنفسجي، وإخذ كل منهم ينظر إلى يديه بألم وهو يقلبهم أمام عينيه كأنه في حلم أو كابوس مؤلم ولكن الألم هنا كان حقيقيًّا وليس فيه مبالغة أو إيهام...

وقتها قرعت الطبول كأنها صوت الألم المزداد مع ظهور دائرة وسط الأربع دوائر...

صوت الطبول يتعنف أكثر... فتظهر ملامح جسد طفل داخل الدائرة الجديدة وهو يمسك بدمية على شكل دب عسلي اللون... فسكنت الطبول عند اكتمال دائرة الطفل واشتد لهب الدائرة ليظهر الطفل

كاملًا وواضحًا...

كان طفلًا مشوه الملابس... يرتدي قميصًا يظهر بطنه مضمخ بطين ورماد يكسو لونه الوردي، وبنطالًا ممزقًا عند ركبتي الطفل كأنه أحد أطفال الشوارع ودميته أيضًا لم تسلم بل كانت تستشيط وكأنها تحترق إثر خيط الدخان الذي كان يخرج منها أمام وجه الطفل المغطى بدم يميل إلى السواد من التجلط كأنه فقيد حرب عاتية يحتضن دميته على صدره بيديه الصغيرتين وينظر للأسفل...

لاحظه الأربعة ليظهر ضوء شديد عليه وكأنه هناك إضاءة خاصة له تجعل منه بطلًا على مسرح مظلم... فبدأت حينها دائرة كبيرة تحاوطهم جميعًا باللهب الأخضر في نفس الوقت التي فيه كانت الدوائر الصغيرة تنسحب في خفوت وكأنه أمر بالانسجام لرؤية الطفل الذي انحنى على ركبتيه حتى أوقف الدمية على الأرض فتوازنت الدمية ولم تسقط بل تحركت خطوتين ناحية الطفل مثلها مثل كائن حي، فدوى صوت عويل وصراخ مكتوم مع عودة الطبول للقرع وسط هبوب رياح من العدم نبتت وبرق ضوى في الأعلى أظهر ملامح غابة للحظة ثم عاد الظلام ليسود...

كل شيء كان يوحي حينها أن هناك من يتربص بهم فاقترب يوسف إلى سارة وتحرك قصي ناحية رحيم ليكتنفوا الطفل الذي يتوسطهم وإذ يروا الدمية تتحرك نحوهم فيقترب كل منهم من الآخر كرد فعل طبيعي في حالات الخوف... الاحتماء بالغير...

اقتربت الدمية أكثر من ناحية يوسف وتكلمت له قائلة بصوت طفولي "احضني" فانحنى يوسف وسط هذا الفزع وهو ينظر بدهشة لمن

حوله حتى صارت عيناه في عيني الدمية العسليتين وقالت له مرة أخرى "احضني" فوضع الثلاثة الآخرين أيديهم عليه تحذيرًا له من لمسها ولكن كانت هناك رغبة وحنين داخله إلى هذه الدمية فمد يده وسط أصوات الطبول والعويل والبرد والرياح ولمس يد الدمية بيديه فضربه ألم شنيع وصل إلى كتفه لتضيء أماكن لمس أيادي الآخرين الذين كانت أياديهم على ظهره لتحذيره فضربهم أيضًا الألم...

ففارت مشاعرهم من الخوف والشعور بالألم المفاجئ الذي اجتاحهم فجأة وبدأت الأرض تهتز من أسفلهم فسمع الأربعة صراخ الطفل وهو يبعد عنهم مسافة ذراعين ولكن صراخه كان بصوت رجل بالغ...

فأصابهم الرعب أكثر وهم عاجزون، فيوسف شعر وأنه مربوط مع الدمية والآخرون مربوطون بيوسف والألم هو الرابط والطفل يصرخ بعيدًا عنهم وكأنه يشعر بهم وكأنها آلامه فتبرق عيناه لهم وهم يتألمون...

صوته يزداد بشاعة فتهتز له الأرض وتهتز الدمية... الألم يزداد فيزداد النحيب أكثر فيتحلل الاربعه إلى أطياف في نفس وضعيتهم ثم تفتح الدمية فاها فتبدأ رؤيتهم في الانعدام... الكيانات أصبحت مبهمة... الأصوات مسموعة... صورة الطفل ذي العيون الحمراء البارقة هي المسيطرة على الإدراكات السابحة في ظلام فم الدمية التي ابتلعت يوسف ومن خلفه رحيم وسارة وقصي في جوفها وصار من جديد الصمت...

فوجئ كل واحد من الأربعة أنه داخل شيء أو ينظر بعيني شيء... اختفت الأصوات والخوف وتبدد الألم... ووُلِد الإدراك ببزوغ صوت امرأة...

يوسف كان هو الأساس، الآخرون مرتبطون به كأنهم فيه... لا

وجود لأجساد مجردة ورؤية الأشياء تتضح تدريجيًّا...

غرفة فيها امرأة متوسطة العمر تجلس على سرير صغير... مساحة هذه الغرفة نسبيًّا بالكاد تكفي لهذا السرير الصغير وكمود ودولاب صغير مقابل السرير وباب الغرفة ونافذة للتهوية...

المرأة ترتدي عباءة بيت، تسند ظهرها على الحائط وفي حجرها طفل صغير يمسك بدمية... إنها نفس الدمية التي كانت تقول ليوسف احضني... المرأة تتكلم بصوت أمومي عذب إلى الطفل فأدرك يوسف أنه هو الطفل وهو الآن يسكن الدمية يرى من خلالها ما يحدث، وفي نفس الوقت يرى كل شيء من الخارج كما يرى الإنسان نفسه في الحلم... يرى ويشعر بنفسه والآخرين... حتى المشاعر، كأنه متصل بكل شيء يرى من كل الزوايا ويسمع بكل الآذان، انصهر مع المادة والأجساد فأصبحوا داخله وهو خارجهم ولكن جل أحاسيسه كانت ملتحمة مع الطفل الذي كان يحظى بحب تلك المرأة التي ترسل ابتسامتها الصافية للطفل سعادة غير مصطنعة...

"ماما انتي عندك كام سنة؟"

قال هذا الطفل لأمه وهي تداعبه على حجرها، فضحكت الأم بصوت تتراقص له السماوات وأجابت الطفل:

"أنا عندي 26 يا يوسف... أنت بقي عندك كام؟"

فأجاب الطفل وهو يتأتئ

"خمسة" وأشار بكف يده مفرود لأمه

فضحكت الأم ضحكة بريئة بصوت منسم بالحنان وهي تحضن

الطفل الذي يحضن الدمية فيستشعر يوسف بغمر من السلام يجتاح كيانه إلى أن قاطع الطفل المداعبة عندما سأل الأم...

"هو خالي فين يا ماما؟"

فتغيرت ملامح الأم البشوشة وانعقد جبينها إثر ذكرى وفاة أخيها الأكبر "عصام" الذي كان لها كل ما تبقى من حماية على هذه الأرض من بعد فراق أبيها وأمها اللذين التهمهما الموت كوجبة إفطار دفعة واحدة في أحد الصباحات الكئيبة على نفس المضجع عندما كانت "مريم" في الثامنة عشر من عمرها حيث في مثل هذا السن والوقت يكون الشخص في أوج احتياجه لهؤلاء المدعوين آباء كجدار أمان وحصن منيع يشعرهم بالطمأنينة حتى يتفرغوا للتعامل مع حرائق الشعور وبراكين التفكير وزلازل حاجة الجسد الذي افتقد لحضن الحنان الأمومي وربت الأمان الأبوي الذي لم يعوض "عصام" أخوها إلا جزءًا بسيطًا منه لكنه أصبح أساسيًّا في حياة مريم بعد ذلك لأنه كان يعاملها لا على أنها أخته اليتيمة بل كان لها أخًا وأبًا وصديقًا ومثلًا أعلى...

فهو كان يقبلها على جبينها ويحتضنها كأنها ابنته الصغيرة لا أخته الصغرى... كان دائمًا خفيف الظل معها وتعامله هي كأنها مسئولة عن وجباته وأكله وشربه فجعلهما اليُتم يصبحان أحن وأقوى من رابط الدم الذي في العادة بمجرد انغماس أحد أطرافه في حياته الخاصة يتلاشى ويتبدد تدريجيًّا ويصبح رابط الدم الأخوى أقل مع الزمن ولكن هما جمعتهما صداقة واحترام. الكل كان يحسدهما عليها لدرجة أن "عصام" لم يجبر مريم على الزواج رغم بلوغه 23 من عمره، بل هي التي شعرت أنها تقف في طريقه عقبة، فقررت أن ترضى بأول من يتقدم لها بالزواج،

فتزوجت في الـ20 من عمرها وأنجبت يوسف الذي أجابت سؤاله البريء قائلة

"خالك راح مكان حلو يا يوسف"

فأجابها الطفل

"هيجي إمتى؟"

"لا ياحبيبي، هو مش هييجي إحنا اللي هانروحله"

فسألها الطفل ببلاهة

"طب هو ليه بابا مش بيروح هو ليه دايمًا بييجي؟"

فامتقع وجه المرأة فور سماع سيرة الأب واغرورقت عيناها في ألم... حضنت الطفل حضنًا قويًّا وكأنها تحتمي في هذا الطفل الصغير...

وحينها سمع الطفل صوت خطى قادمة ناحية الغرفة، شعر الطفل بخوف ورجفة وكأنه يجري في الظلام هربًا من شيطان يلمس أنامل قدمه لمسات مزعجة تثير الرعب، ففتح الأب باب الغرفة. رجل ثلاثيني العمر على وجهه وجوم ينم عن غضب أعمى لرجل غشيم يبث النكد والخوف بمجرد حضوره، فساد السكات الغرفة والأم تنظر إلى الأب وهي تحتضن الطفل حتى أردف الأب فقال

"من فيكم لعب في عِدة الشغل"

فردت الأم وهي تحتضن الطفل كأنها تدافع عنه

"محدش لعب في حاجة"

فرشق الأب الطفل بنظرة حادة وتحرك ناحيته ليخطفه من حضن أمه

التي انتفضت من على السرير في سرعة وفزت على قدميها ليكون جسدها أمام الطفل الذي اختبأ خلفها لئلا يرى ما سيحدث، فاستحالت المرأة إلى لبؤة تحمي أشبالها من ليث عاتٍ...

"اطلعي يا مريم، وسيبيني مع الواد"

قال الرجل وهو يواجه حدتها بحدة أعند فصرخت هي غاضبة

"لا ياعلاء، ومالكش دعوة بالواد ده عيل مش ناقص تطلع خُللك عليه"

فاقترب منها إلى أن أصبح جسده الطويل مقابل جسد زوجته الضئيل وأمسكها ببرود وعنف من عنقها بيديه الاثنين ليخنقها ويقطع الهواء عن قصبتها الهوائية فأخذت تصدر هي فحيحًا كالأفاعي إثر الاختناق وهو ينظر لها ويبتسم بإذلالها فعندما ضاقت واحمر وجهها من الكتمة ضربته بكل عزمها بقبضة يديها لتبعده عنها فاختل توازنه من ضربتها وتراجع للخلف ليستشيط غضبًا فهجم عليها ومسكها من شعرها وجذبها جذبة قوية أسقطتها أرضًا والطفل يشاهد ما يحدث دون أن يصدر أي رد فعل وهو يرى أمه تُسحل من شعرها كخرقة بالية تجفف بها الأراضي وأبوه يركلها ويضربها ضربات مهينة على وجهها وخلف رقبتها وهو يسبها...

"بتمدي إيدك على يا بت الكلاب، طب وحياة أمك ما هارحمك"

الطفل يوسف لم يعد يدرك شيئًا مما يراه، فأمه تُضرب من إنسان عنيف، مخيف، يذلها ويُهينها بطريقة مقيتة جعلت الطفل يشعر بمشاعر مختلطة من الرعب الممزوج بالغضب والانتقام...

مما جعل البراءة الطفولية لديه فريسة وسط نمور همجية تمور وتزأر

وهم يمزقون أحاسيسه وينسلون رحمته... فصار الطفل كالمقتول حيًّا الذي لا يشعر إلا بألم الموت الذي هو الخوف...

الخوف هو التجربة الشعورية التي عندما يتعرض لها الكائن الحي دون مصاحبة الألم فهو يشعر بالألم وعندما يشعر بالألم يبطل الخوف القديم ليولد رعب جديد من الألم القادم... هذا إن كان الخائف والمتألم هما شخص واحد، ولكن إن كانوا مختلفين فالمتألم كفيل بنشر الخوف في كل من حوله...

لذلك كان الطفل خائفًا وهو يرى بعينيه ألم والدته... أعز حبيب حظى به في دنياه... معنى الأمان لديه... دنيته وعالمه يداس على رأسها بقدم هذا البشري الذي يدعوه "بابا" وتضرب وتلطم كالحمارة العنيدة في المطلع...

يبحث الأب عن حبل والأم في زاوية الصالة تشن وتئن وتبكي بحرقة وتشهق كالفتاة الصغيرة فهي تعلم ما الآتي فتنظر لطفلها وسط كل هذا بابتسامة مكسورة من بين النحيب والدموع كي تطمئنه وهو ينظر لها نظرة مصدومة في ثبات وعته وفم مفغور... ملامحه حائرة من استدراك الذي يحدث...

أتى الأب بحبل ومسك زوجته بقسوة من شعرها فبدأت المرأة تقاوم بنيته القوية وهي تقول...

"اتقي الله اتقي الله فيا وفي ولدك يامجنون"

فرد عليها وهو يقيمها من شعرها

"الله؟ الله لو نزل من سماه أنا مش هارحمك يا قحبة، أنا هنا الله يا كلبة"

أجلسها بالقوة على أحد الكراسي وهو مستمر في لطمها بطريقة بهيمية كأنه تخلى عن إنسانيته... يبصق عليها بلعابه على وجهها وهو يبدأ في تكتيفها بالحبل وهي تلهث وتصرخ وتصنع الجلبة والسرسعة النسائية حتى يغيثها أحد فضاق بها وأتى بشريط لاصق كبير ووضع قطعة على فمها فكتمت الأصوات لتبكي بأسى ودموعها تنهمر دون توقف...

أنين يخرج من أنفها وهزات بجسدها في محاولات فاشلة للتخلص من هذه القيود المقيتة التي تظهر العجز كلوحة بخسه في مقلتي عينيها...

بدا الزوج كالحيوان المفترس ينظر إليها بشماتة وكراهية ليس لها علاقة بنظرات العقلاء... فصفعها على وجهها صفعات مهينة ليست غرضها فش غل لكنها تُحقِّر وتُذِل...

فتبادل الكل النظرات كإطلاق نيران متبادل ما بين الابن والأب والأم الموثوقة بإهانة وقسوة والطفل لا يفهم شيئًا لكنه يشعر فقط...

وذاكرة المشاعر لا يجور بها الزمن وتضعف، بل بالعكس كلما زادت مدة الحياة زادت كمية المشاعر المختزنة داخل الذاكرة...

نظرات الأم ما بين رجاء ويأس ألَّا يفعل ذلك ولا يهينها أمام ابنها فهي لا تخجل من طفلها لكنها لا تريد أن يراها في هذا الوضع الصعيب...

الرجل ينظر إليها نظرات مريض نفسي وهو يتصبب عرقًا من مناهدته معها فمد يده نحو عباءتها وهو مُهستر تمامًا يمزق في ملابسها كأنه يغتصبها أمام طفلها، نشيجها أليم وسقيم وهمهمتها تؤذي روح الطفل فالأم هي روح الطفل الحقيقية إلى أن يختبر هو روحه الطبيعية...

الدموع بللت جسدها العاري مزق أيضًا ثيابها الداخلية بجنون

وعنف وهو يضرب ويلطم في جثة حية موثوقة وليس لها حتى حق الصراخ والتعبير...

الطفل ارتعشت قدماه فسقط في شبه شلل جزئي مما زاد هم الأم المضروبة عندما رأت طفلها هكذا لا يتحرك أمامها وهي تتمزق حرفيًّا أمامه وتسمع صوت زوجها وهو يقول بلغة مخابيل

"شايف يا يوسف ماما حلوة... ماما اللي بتحبك"

ثم يأتي بمادة موضوعة في زجاجة ويبدأ في إكمال تمزيق العباءة عند وِركي زوجته ويعريها تمامًا وينزع ملابسها الداخلية ويضحك وهو يفعل ذلك كأنه ملبوس رأسه تتشنج من عند عنقه تشنجات متقطعة...

الولد ينظر دون تعبيرات على وجهه يحضن دميته وقدماه مشلولة لا يحركها...

فيأتي أبوه ويمسك الزجاجة التي أحضرها ويوربها ببطء حتى تتجمع نقطة من السائل على فوهة الزجاجة فتسقطت النقطة بعدها على فخذ المرأة مخلفة دخانًا كثيفًا ممزوجًا برائحة شواء لحم بشرية.. فجعل الألم عيني المرأة تنفطران من محجريها بألم جحيمي مرقط بأنين عنيف ودموع مدممة... والجنون حالة مسيطرة على عقل الرجل، عقله الذي ذهب ولم يعد... فهو يعبث بلحم البشر كأنه لعبة... أخذ يكرر العملية مرة أخرى في مكان مختلف على فخذ زوجته العارية... فتبول الطفل على نفسه...

يوسف وكياناته في الدمية التي ابتلعتهم... يوسف الحال في كل شيء في هذه الذكرى بدأ بإدراكه وكيانه يتألم... كابوس يحياه ولا يستطيع الخروج منه والكيانات الأربعة كانوا متصلين بالطفل اتصالًا تامًّا والطفل

كيانه يهتز كزلزال عنيف... الألم يزداد في الشعور، والعواطف تتمزق في الدواخل... الوجع لا يطاق فتنفصل الكيانات عن الدمية كأطياف تأخذ طريق الرجعة إلى البداية صمت وظلام وسواد...

8

الأربعة كيانات في نفس الدوائر على شكل زائد...

أرواح الألم تنشر في أجسادهم المنبثقة من العدم... الطفل ما زال موجودًا في الوسط... لكنه معلق بخطاف مارًّا بأحشائه وجلد بطنه مسلط عليه الضوء من الأعلى حيث لا شيء إلا حبل وخطاف... الآلام تغزوهم جميعًا إلا يوسف الذي تقتحمه الأوجاع اقتحامًا في رأسه كأنما أحدهم يدهس رأسه تحت دبابة مرارًا وتكرارًا... قرع الطبول الرتيب المخيف الذي يستدعي أرواح الشر والخوف في عقولهم جميعًا بدأ في تسريب الرعب تحت عقاب قلوبهم... فتحرك الأربعة نحو بؤرة الضوء أسفل الطفل المعلق تقطر عليهم دماءه كأنه ذبيحة خطية بدمائه يكفر عنهم خطاياهم في المحراب المقدس...

التصق الأربعة ظهورهم في ظهور بعض للشعور بالونس والحماية وسط العتمة التي يشقها تدريجيًّا صفان ضوء متوازيان مع ارتفاع صوت النواقيص و الطبول كأنها حفلة للخوف وشرب الدماء...

الضوء صنع طريقًا وسط الظلام فالتفت الأربعة نحو الطريق الذي انبثق من السواد والعدم والأصوات المخيفة التي تؤثر على كل حواسهم

الداخلية فهم يريدوا أن يتخلصوا من تلك الأصوات التي تقتلهم فعلًا من الرعب...

فالإيحاء بالخوف أعنف من الخوف نفسه...

فحينها وفجأة ظهر ذئب أسود اللون خلفهم لم يشاهدوا من ملامحه غير أنياب بيضاء كالسكاكين وعيون حمراء كالدم... الذئب ضخم جسده يعادل أجسادهم وزيادة... عواء غزير يتلفح آذانهم وأصوات مبحوحة تنتقم من سمعهم... أصوات لِأناس معذبين في فترة تسليم الموت والعذاب...

فيقترب الذئب وهو يضبح بأنفاسه التي تخرج على هيئة دخان منفور فيستذيب الرعب الأربعة الذين لم يجدوا مفرًّا سوى الطريق النوري الذي ظهر لهم فيسمعون فجأة صهيل فرس بنبرة زئير أسد فيدب الخوف أكثر في نفوسهم...

ليخرج فجأة من الطريق المضيء أمامهم مسخ... شبه إنسان قصير القامة جسده غير متناسق... ظهره شبه مكسور، يداه وأكتافه مسلوختان فيقترب منهم ثم يشير لهم اتبعوني وبعدها بدأ في الركض في وسط الطريق المضيء ليعطي الإشارة الخضراء للذئب الذي بدأ في مهاجمة الأربعة من الخلف...

لم يجدوا بديلًا إلا اتباع هذا المسخ؛ فعلى الأقل مسخ يركضون خلفه أفضل من ذئب يركض خلفهم... فيركض الأربعة بجنون غير مبالين أين سيذهبون في تعرجات هذا الطريق الذي يضيء كلما اقتربوا أكثر للظلام المنقشع..

فبدأت أصوات أطفال في صورة جماعية تنشد أبيات على شكل تلاوات صوفية لحنية لكن كلماتها لم تكن مفهومة بل كانت منثورة كالحب يوم الحصاد

"مت ياقايين بعذابك فإنك ملعون،

مت ياهابيل فعدلك جلي وهو ظالم،

تكفهر من وجهه العيون،

الله المعلن"

فتتوهج داخلهم هم الأربعة المخافة ويصبح الهروب إلى اللا شيء هو غايتهم وسط كابوسهم الجماعي فالذئب يقترب أكثر منهم... الأسرع في المقدمة هو يوسف يليه قصي وبحزاه يركض رحيم وتتخلفهم سارة وهي تسمع أصوات أنفاس الوحش خلفها وهو يركض فتريد أن تقتلع آذناها حتى لا تمنعانها عن الهروب فالهروب من الخوف يحتويها داخله في اللحظة التي تخشى فيها ألم الالتهام أكثر من الموت نفسه...

ففي داخلها تريد أن تموت... فالألم والخوف في استفحالهم يدفعان للرغبة في الموت أو إنهاء الشعور بإنهاء حياة الشاعر... لأن الرعب يحرض الكيان والإدراك إلى اختيار التلاشي أكثر من الوجودية داخل الوجع وآثاره...

إذا استمر سباق النجاة هكذا فسارة تعلم جيدًا أنها ستكون باكورة الألم والسَرَط لنجاة الآخرين ففي داخلها استعدادها للمعاناة التي ستلقاها بين أنياب الذئب جعلها وهي تركض خلفهم تشعر وكأنها تتمزق بالفعل فأخذت تتألم دون أن تتألم، استعداد عقلها للأوجاع

الوهمية استحضر الألم دون أن يوجد.

تنحر الأنفاس صدر يوسف في الأمام الذي يرى تدريجيًّا شفقًا يزداد آخر الطريق المضيء... رحيم وقصي يتصادمان أثناء الهرب وحناجرهم تتصدع مع كل شهيق يجرحها... المسخ يتقدمهم جميعًا أمام يوسف "تبًّا" أنه أسرع منهم جميعًا ليتوجه نحو الشفق الذي يعلو كل مدى في تزامن من نسق حركتهم كانسدال ستائر مسرحية...

تعلو الطبول من جديد نذير التحذير في آذانهم أن النهاية اقتربت سواء خلاص أو موت ففي كل الأحوال أفضل من وضعهم الحالي... هم مُقتادون إلى حيث لا يدرون فالمسخ الذي أمام يوسف كان يركض ثم سقط في نهاية الطريق وسقط خلفه يوسف وهو يصرخ وكان رحيم وقصي خلفه بأنفاس مقتولة يركضان بسرعة لم تتح لكبح أجسادهم عن السقوط فسقطوا خلفه في هوة مجهولة أما سارة فكان أمامها وقت كافي حتى تتخذ قرارها بالوقوف لكنها قررت أنها أخيرًا حتى وإذا تلاشت وعدمت لن تسمح لذلك الخوف أن يبتلعها فسقطت خلفهم لتجدهم أمامها يتكررون عشرات المرات يوسف ورحيم وقصي وترى نفسها أيضًا... كلهم يسقطون في هوة عظيمة بدأت تظهر ملامحها جيدًا كل مدى...

ألسنة لهب على الحوائط الدائرية للحفرة لكن المكان غير حار كأنهم يسقطون داخل حفرة جهنم ظاهرية لا تأثير لها...

فسقطوا جميعًا في قاع الهوة الرملي بالتوالي دون أن يحدث لهم شيء كأنهم سقطوا من مسافة صغيره... فوقفوا جميعًا عقولهم تحمد الله على إنقاذهم من الذئب المفترس الذي كان يركض خلفهم..

ظهر لهم المسخ مجددًا يشير لهم بنفس الإشارة كي يتبعوه فينظرون حولهم ليجدوا أنفسهم قريبين من مدينة أمامهم وجمهور من الناس كثير على بعد مسافة تقدر 600 ذراع من موضعهم يهتفون بلجاجة "اصلبوه... اصلبوه" فلا يبالي الأربعة مؤقتًا بما يسمعون فهم يريدون أن يتداركوا ماذا يحدث حولهم...

فخلفهم جدار سامق لا نهاية لارتفاعه تكسوه ألسنة نارية وأمامهم جداران على اليمين واليسار ممتدان أمامهما كأنهما بوابة لهذه المدينة الغابرة ذات الطابع الحجري والضوء المريخي الأحمر المائل للاصفرار كأنك وفي زمن الغروب دون شمس لتغرب وهؤلاء البشر الكُثر المتجمعين في حالة تظاهر واحتقان...

تقدم المسخ وهو يحسهم أن يتبعوه بإشارت يده المسلوخة من الجلد فتبعوه ومشوا مسافة... خارجين من بين الجدارين المتقابلين كأنهما بوابة دخول لمدينة...

فيرون حالة من الذعر والجنون يجتاح جمهور هذه المدينة البدائية...

فهذا الرجل الذي يرتدي جلبابًا يرفعه ممسكًا طرفه بفمه مُعلنًا عن ذَكره الذي يولجه داخل دبر تمثال رُخامي لامرأة في وضع سجود ويصرخ "اصلبوه" وهو يضبح من اللذة...

وهذه الطفلة التي تبكي وهي تصرخ "اصلبوه" موشحة بنظرها في اتجاه الصليب المعلق عليه جسد عارٍ تمامًا من كل شيء يتوسط صليبين هكذا أيضًا ولكن الجمع كله يشير إلى المصلوب في الوسط ويزيدوا الأمر عليه قهرًا فهو مصلوب بالفعل لكنهم لا يكفون عن الصراخ بكلمة "اصلبوه" كأنهم يقولون لأنفسهم اصلبوه داخلكم عذبوه وجرحوه في

عقولكم شوهوه بأفعالكم وابكوا عليه حسرة بدموعكم...

ورأوا مجموعة من الناس يزحفون على ركبهم في حدود عشرة رجال ونساء كالخِراف مربوطين كل واحد منهم بطوق حديدي حول رقبته يمتد من هذا الطوق سلسلة حديدية لكل فرد منهم... تتجمع العشرة سلاسل في يد شخص يرتدي زيًّا أسود كاملًا وعلى رأسه عمامة سوداء مُزدانة بزخرفات مذهبة وفي يده الأخرى صليب طويل في حدود المتر والنصف...

وجهه صبوح يشع نورًا ووهجًا.. لحيته كثيفة وشاربه كث يغطي وجهه كاللثم... كل ما يفعله هو أن ينخس هؤلاء العشرة بالصليب وهو يزجرهم بكلمة "اصلبوه" حتى يسوقهم أينما يريد إذا شت واحد منهم أو تحرك بعيدًا عن الطريق الذي يريدهم فيه...

كانت الزحمة تعم المكان والأربعة يتلفتون على بعضهم البعض وسط الزحام... فيرون أناسًا يركضون ويهجمون بتقافز على بعضهم البعض في شراسة... وآخرين يقفون أمام حائط ويدعون بالصلوات...

وسيدة أخرى تقف أمام تمثال كبير لأحد الملائكة وهو يمسك سيف في استعداد جندي وتُقَبِّل هذه السيدة قدم التمثال وهي تتمرغ بوجهها ودموعها على قدميه الرخاميتين... ولكن الشيء الرئيسي في هذا المكان أن الجميع يشاركون في عذاب المصلوب وهم يصرخون "اصلبوه"...

اجتاز الأربعة منطقة العبث ونِثار الناس المشتتة في جميع النواحي والاتجاهات إلى أن وصلوا للحائط البشري الذي يفصل بينهم وبين المحكوم عليهم بالصَلب الذين كانوا موجودين تحت مبنى فخيم وعظيم من الـ "الماس" أو يمكن أن تقول أن المبنى كله عبارة عن ألماسة عظيمة

الحجم منحوتة لتصبح قصرًا ملكيًّا يجلس في شرفته المطلة على الجماهير شخص مهيب يساع الكل ويحتوي الجميع، هذا الشخص كان ينظر من شرفة القصر نحو الصليب الأوسط بثبات وبنظرة تأمل...

كان المكرم والجليل كان مجيدًا كفاية لأن يلحظه أي شخص بكامل تفاصيله بوضوح دون تشويش... كانت العزة والكرامة تكسوان ملامح وجهه المتواصل جدًّا مع المصلوب الأوسط الذي كان يعاني من الوجع بطريقة عنيفة حينما يسمع الجموع تصرخ نحوه اصلبوه وآخرين يلقونه بحجارة وهو لا يموت لكنه يتعذب فقط... يسبونه ويبصقون عليه فيذرف المصلوب الدموع...

الشخص العظيم الجالس على عرشه ينظر للمصلوب الأوسط والمصلوب الأوسط ينظر بعنين غائرتين مدممتين إلى رحيم الذي كان يبادله نفس النظرة...

بدا للجميع أن رحيم يدخل في صراع مع هذا المصلوب الأوسط فالاثنان يرشقان بعضهما البعض بنيران التساؤلات والاستفهامات، كل منهما يسأل والآخر يقصد ألَّا يجيب...

حينها وسط ملحمة الأجفان فُقِد الزمان والمكان وصار جمهور الناس شِقَّي بحر على شكل جدار يمينًا ويسارًا...

يأتي المصلوب وينزل بسلاسة من صليبه وهو عارٍ ويقترب ناحية رحيم...

كان وسط البحر ريح تشق البحر، والثلاثة ينظرون إلى رحيم وهذا العاري المضروب، المقرح بالجروح والدم والزبد نتيجة ما حدث في

جسده من عذابات لا يتحملها جسد حي على وجه المسكونة...

غضبه وتجهمه وهو يأتي نحو رحيم كان بَينًا وجَليًّا... أخاف وأرعد أرواحهم التي كانت متصلة اتصالًا كاملًا شعوريًّا وحسيًّا، لكنه يركز عينيه على رحيم فقط وهو يقترب اتجاهه حتى يقف أمامه، عيناه في عيني رحيم تتحديانه بشدة وبقوة نفسها كانت في عيني رحيم...

كانا ينظران لبعضهما البعض وسط الريح والعواصف والزوابع التي تشق البحر إلى جدار حتى لمس المصلوب ببنان إبهامه جبين رحيم الذي ضربته صاعقة في رأسه آلمت الثلاثة الآخرين ألمًا رهيبًا فامتزجت أرواحهم في نطاق خارج الزامكان حتى صار إدراكهم مُصَفرًا في سواد قاتم منه إلى استنارة إدراك فيها صليب لكنه لا يحمل إنسانًا...

9

عادت المعرفة والوعي للحياة من بوابة إدراك رحيم الذي كان إله ما يراه في قدرته على الإلمام بكل المحسوس والمدرك الممزوج معه يوسف وقصي وسارة...

فهو يرى نفسه يجلس يصلي على دكة خشبية من أصل أربع دكك آخرين على شكل مربع وسط بهو كنيسة لكنها ليست كبيرة كانت صغيرة نسبيًّا بالنسبة إلى أحجام الكنائس التي تأتي في القنوات الدينية على التلفاز...

يجلس بجوار رحيم "بطرس" و"مينا"، والدكة المقابلة "بيشوي" و"باسم"، والدكة الثالثة "يوسف" و"ميشيل"، والدكة الرابعة ليكمل المربع كان يجلس القس "سامي عوض" في قيادة الجلسة التي بدأها بيشوي بصلاته المصطنعة بكلمات لا يدرك ربع معناها...

فهو يدرك أنه يريد أن يوضع في قيادة المجموعة لذلك فقد بادر بهذه اللفتات كافتتاح الاجتماعات بالصلاة من أجل البركة... الوقوف أثناء الاجتماعات بين الدكك لترتيب الحاضرين في اجتماعات يوم الأحد كنوع

من الخدمة أو وسط قيام الخادم بالوعظ على المنبر يقوم ويغير كوب الماء لأجل نشفان ريق الخادم أثناء الوعظ... والتبرع بترتيب أسلاك "المكسر" و"المايكات" الخاصة بفريق التسبيح بعد انتهاء الاجتماعات حتى يكسب حسن ظن العامة والخاصة الذي هو القس "سامي عوض" هذا الشخص المحبوب من طوب الأرض الذي يوزع ابتسامته دون بخل على الجميع ويعمل على التشجيع للكل ولا يُذكر أنه وبخ أو زجر أحدهم قبل ذلك حتى أنه في أحد أيام الاجتماعات العامة دخل أحد الصبية مبنى الكنيسة وكان هو يعظ على المنبر حتى وصل الصبي أمام المنبر وقذفه بحجر أصاب حاجبه الأيمن ثم فر الطفل هاربًا وهو يهتف "الكنيسة وقعت والقسيس مات"...

حينها تألم القس سامي إثر قذيفة الطفل لكنه ضحك وابتسم وهو يقول للحاضرين

"أما مشوار الرجم ده طلع صعب فعلًا يا جماعة... الله يكون في عونهم"

ابتسامته المستمرة وحرصه على حفظ أسماء الحاضرين شخصيًّا سواء كان طفلًا أو شابًّا أو كهلًا... فهو لا يميز في العطاء، كان يحرص دومًا ألَّا يتكلم كثيرًا عن الأفعال وكيفية العطاء لكنه بصمت وببشاشة دومًا يعطي دروسًا تُنحت في أذهان من يراه...

فلا أحد ينسى من مجموعة الخدمة في الكنيسة عندما قابل هذا الطفل الذي رجمه بحجر في عينيه وأخرج له طائرة لعبة تعمل بالبطارية وأعطاها له في الشارع خارج الكنيسة وابتسم للطفل دون كلام ثم رجع للمجموعة وكأن شيئًا لم يحدث... ومن حينها لاحظ الجميع أن هذا

الصبي لم يوقف ألاعيبه وجهنميته إلا مع القس سامي عوض الذي بدل تبادل الأحجار إلى ابتسامات بريئة بينه وبين هذا الطفل...

أخيرًا انتهى "بيشوي" من صلاته الفريسية وجلس بجوار "باسم" ونظر الجميع إلى القس "سامي عوض" وهو يفتتح الحديث بالسلام..

- إزيكم يا شباب؟

فرد الجميع السلام في همهمات متقطعة...

- نشكر الله ياقسيس

- ربنا يباركم النهارده الاجتماع كان حلو بالمسيح وبيكم طبعًا... أنا جمعتكم النهارده...

فقاطعه بيشوي بغباوة خروف تائه...

- علشان مش فاضي بكره هههههه...

وضحك "بيشوي" لنفسه بضحكته المتقطعه كنهيق بغل يتيم حتى شعر بامتعاض المعظم من المزحة فأخذ يهدأ تدريجيًّا وينظر ناحية القس الذي لم يكسفه لكنه ابتسم له ابتسامة رد وقبول وقال...

- لا يا بيشوي أنا أفضالكم مخصوص بس هو أنا جمعتكم النهارده علشان تقروا سوا جزء من الكتاب كنت عايز نقراه سوا واقولكم شوية مشاعر حسيتها لما قريت الكلام ده في الخلوة بتاعتي الصبح... خلينا نطلع سوا رسالة كورنثوس الأولى إصحاح 13 بداية من آية 4. ثم بدأ الجميع يتحدث في فم واحد بعد إخراج الكتب المقدسة وفتحها على الشاهد المطلوب.

"المحبة تتأنى وترفق... المحبة لا تحسد... المحبة لا تتفاخر ولا تنتفخ ولا تقبح ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء ولا تفرح بالإثم، بل تفرح بالحق وتحتمل كل شيء وتصدق كل شيء وترجو كل شيء وتصبر على كل شيء... المحبة لا تسقط أبدًا... وأما النبوات فستبطل والألسنة فستنتهي والعلم فسيبطل".

آمن الجميع... وتوجهت الأبصار نحو القس سامي الذي جمعهم من أجل هذا المقطع... فأردف بعد بُرهة من الصمت...

"المقطع ده من أشهر المقاطع في المسيحية وقُتل بحثًا ووعظًا زي ما بيقولوا بس أنا النهارده وأنا بقراه الصبح لاحظت إن كل اللي بتشير ليه المحبة لو شخص عرف ينفذه فالشخص ده المجتمع هيسميه "ساذج" ههه تصوروا إن واحد في الزمن ده وهو بيتعامل مع بياع هدوم لا يظن فيه السوء وهو بيشتري الهدوم هيقولك التشرت ده بعشروميت جنيه وأنت تدفع على طول... أو"المحبة تصدق كل شيء" زي ما عدد 6 بيقول طب لما ييجي واحد يقولك أنت كافر تصدق حبًّا فيه إنك كافر... أنا عارف إن كلامي صعب وجواكم بتقولوا أكيد هو محضر مفاجأة بعد الكلام الجامد ده بس المفاجأة أن كلامي خلص أنا فعلًا شايف إن الشخص اللي هيحب بالطريقة دي مش هيعرف يعيش في الزمن ده وبين البشر دول... الأرض مش مثالية يا جماعة، والا انتو إيه رأيكم؟

سكت الجميع وزنًا للكلام وتفكيرًا لحظات حتى قطع "باسم" و"رشدي" الصمت بخفة دم...

– إيه يا بونا، وجهة نظر إيه يا راجل، وحد الله بقى أنت ناوي تلحد ولا إيه يا جدع.

فضحك الجميع ضحكات متفاوتة الصوت والنغمة حتى كسر موجة الضحكة هذه دكتور "مينا نسيم " الذي يجلس بجوار رحيم وبطرس...

– هو يابونا وجهة نظرك منطقية بس أنا رأيي إن الكلام ده اتكتب في الإنجيل علشان يعمم ويصير شريعة للكل... تصور يابونا، لو أن البياع هو اللي نفذ الكلام ده يبقى المشتري مش هيعاني لأن البياع أصبح بيحب المشتري لدرجة أن الإنسان أصبح أهم من المعاملة المادية ولو واحد هيقولي أنت كافر وكان هو اللي بيحبني فكلامه هيتبدل ويقولي "انت رائع"... أنا متهيألي الكلام مثالي جدًّا لو كل البشر نفذوه لكن لو واحد كسر دايرة المحبة فالمحبة هتكون صليب أو بمعني أصح هتكون أصعب شيء ممكن إنسان يعيشه في وسط الكراهية لأن الكراهية مش بترحم وبتستمتع بتعذيب المحبة لمجرد إن جر رجل الشخص المُحب إنه يتنازل عن محبته في سبيل إنه يعرف يعيش...

تمتم الجميع بتكيف لما سمعوه في خلاصة وكلمات خام هدم بها الدكتور مينا غبار التساؤلات التي أشعلها القس بمشاركته المتواضعة حتى يستفيدوا من مثل هذه الإجابات التي يرسلها الرب على يد هؤلاء الأخوة المباركين لكن "رحيم" أبى الاستسلام لمثل هذا الرد عن طريق سؤال أكثر جرأة...

– بس ربنا مكنش بيعمل كده وحتى الآن مبيعملش كده...

فرد عليه "ميشيل"

– وضح كلامك عشان شكلي هاتعبك

فرد رحيم بتلقائية

- بص على التوراة وبص على أول آية قريناها بتقول "المحبة تتأنى وترفق" بص ربنا كان بيتعامل إزاي مع كل الشعوب غير شعب إسرائيل لا كان بيتأنى ولا كان بيرأف بالعكس كان بيجز رؤوسهم بالسيف كلهم...

فسمع مقاطعة "ميشيل"

- بس أنت لسه قايل آهو "عهد قديم" أما اللي إحنا قريناه عهد جديد فيه اختلاف

فأردف رحيم...

- لا طبعًا مفيش اختلاف، هو أنت تستخدم العهد القديم وتقول أن نبوءاته كلها اتحققت في المسيح وتاخد منه مادة تثبت بيها صحة المسيح كابن الله وبعد كده لما حاجة تختلف عن المسيح اللي هو بيثبته أساسًا تقول ده مختلف أكيد لأ طبعًا... أولًا إنه المفروض إن الله لا يتغير ولا يعتريه ظل دوران أنا دلوقتي مش بتكلم معاك في شرايع وضعها للبشر اللي بيختلفوا في الأزمنة أنا بتكلم عن تعامله هو مع البشر المفروض لإنه إله واحد يكون تعامله ثابت طول الوقت مع عبيده وأولاده... يعني إيه معناها يعامل كل شعب بطريقة معينة وفي الآخر نقول عهد قديم وعهد جديد... ثانيًا ياسيدي بدل أنت بتتبرأ منه وبتعتبره "عهد قديم" وكلام قديم إحنا بنؤمن بيه ليه؟

صمت ميشيل والآخرون ليس تفكيرًا في استفسارات رحيم لكن قراءة لطريقة كلامه التي تكاد تُستساغ على أنها هجوم وليست مناقشة... ولاحظ الجميع أيضًا بهتانه في الأسابيع الأخيرة عن الوعظات وصمته الطويل إلا حين تأتي أمامه مناقشة حول الله فكان يأرنب أذنه وتتسمر

عيناه على فم المتحدثين حتى يتذوق المناقشة التي كانت من الممكن أن تستفزه ويدخل دون وجه دعوة فيها...

لكن فترة الصمت شوبها "بيشوي" بسطحية شخص مصاب بعته مغولي يتدلى الزبد من فمه عندما تكلم...

– اهدى شوية يا رحيم، الله صالح ومراحمه على جميع أعماله... متفكرش كتير خد الأمور ببساطة... الله قال كده "توكل على الرب من كل قلبك وعلى فهمك لا تعتمد"

بعدها تحدث بلهجة أكثر حدة ونطاحة...

– ثم أنت مين علشان تقول كده على ربنا ياخي لاحظ إنك تراب وحتة عبد لا تسوى في ملكوت الله...

– مدام أنا عبد وتراب خلقني ليه؟ خلقني علشان يذلني ومفهمش ومسألش ومشغلش عقلي مع احترامي ليك يابيشو إجابتك مش منطقية...

رد رحيم ببرود واضعًا قدمه اليمنى على اليسرى وكفاه معشوقان يتلوى إبهامها خلف الآخر ببطء... فرد حينها بيشوي بحدة...

– منطق ومش منطق وفلسفة مع احترامي ليك يعني أنا حاسس إن أنت بتتفلسف أو بتتفذلك... عادي يعني يارحيم، مش لازم تقولنا إنك بتحب القراية والفلسفة ولازم تعمل نفسك عميق علشان تبان في القعدة بأسئلتك البايخة دي...

– هههههه أو يمكن أنت مبتفهمش الكلام ده، أنت آخرك تحفظ زي الخروف.

- الخروف..!!

"سك سك" وأشاح القس "سامي" بيده نحو رحيم ويرفع حاجبه الأيمن وينظر له نظرة غير راضية على كلامه وبصوت حازم تكلم لإنهاء الاجتماع...

- شكرًا يا جماعة على الوقت الحلو ده، أشوفكوا يوم الأربع في اجتماع الشباب متنساش يا بيشو تيجي بدري تظبط الدنيا...

فأجاب بيشو...

- إيه يابونا، مش هنختم بالصلاة؟

صلي في البيت يابيشو لو عايز تصلي كفاية صلاة لبعد كده النهارده-

تفرق الجمع، بيشوي وباسم أخذا يرجعان التخت إلى مكانها الطبيعي... بطرس ومينا تحاضنت ذراعهما كالخطاب وأخذا يتهامسان بكلمات منخفضة وهما يخرجان من باب الكنيسة... أما القس سامي فكان يركز نظره على الأرض ورحيم كان لا يزال في نفس وضعه حينما أردف القس سامي...

- أستأذنك يا رحيم عايزك...

ثم مشى نحو باب الكنيسة ينتظر وصوله خلفه حتى جاء رحيم وأصبحا بعيدًا عن بيشو وباسم اللذين كانا لا يزالان يصلحان من وضع التخت والميكات والسماعات والآلات الموسيقية مرجعين كل منها إلى أماكنها...

فوجه القس سامي نظرة نحو رحيم بثبات آخذًا وضع البوكر فيس

ليتكلم بهذه الكلمات...

– رحيم أنا مش هكلمك في مقدمات ملهاش لازمة بس طريقتك في الكلام مع بيشو مش طريقة تمجد ربنا ولا طريقة مسيحية... ثانيًا أنا بحترمك جدًّا وفاهم أفكارك بس متخليش كتر التفكير يخليك تتفلسف أو تتكبر على غيرك وعلى ربنا... متعتبرش نفسك علشان أنت بتفكر كتير في ربنا إنك أحسن من ربنا نفسه... وخلي بالك ربنا رحيم لكنه عادل وأنت ابنه والروح القدس ساكن فيك وأنا مش عايزك تتئذي أو تتعرض لتأديب إلهي... في الأول وفي الآخر هكررهالك تاني خلي بالك من كبريائك... كبريائك ممكن يوصلك لمرحلة إنك أعلى من ربنا... صدقني يا رحيم، أنا خايف عليك... ربنا معاقبش الشيطان غير علشان الكبرياء... اوعى تتكبر على ربنا اوعى... انكسر في الصلاة دايمًا، واخدم إخواتك في الكنيسة... استقبل السُلطان اللي أعلى منك من غير كبرياء... سامعني؟

كان ينظر رحيم إلى الأرض وهو يقف أمامه متعثرًا في أفكاره وعواصف ذهنه التي تقتلع كل أخضر ويابس... فبالنسبة لرحيم كان الشخص الذي يكن له الاحترام والتقدير طوال الوقت ها قد ينشئ الحساسيات معه مثله مثل الباقين لا أحد يتحمل كلامه فهو كان يرى الكل مجتمعين عليه وهو في صور متباينه ما بين المظلوم وما بين المفكر وسط جهل مدقع... فلا أحد يفهمه ولا يشعر بما يشعر به هو... فهو يرى الكل طوال الوقت يعاملونه على أنه متصلف يفكر ويمشي ويتكلم في خيلاء فيلسوف كاذب يريد الشهرة مثله مثل باقي المعترضين على أي شيء اتباعًا لمبدأ "خالف تعرف" في حين أنه يرى نفسه طوال الوقت في دوائر وسواقي لا نهاية لها من النور والظلام المضلل... ارتباطه ورؤيته

للقس "سامي عوض" الذي كان يرى فيه المسيح المتجسد لكن وبعد هذه اللهجة والنظرات التي أدغمها مع كلماته الاعتراضية قد كسرت غلال الخضوع التي في داخله... حينها رفع عينيه من الأرض ورمق القس "سامي" بعينين عرفا خيال الألم ورجم القس بسؤال...

-عارف ياقسيس مشكلة الحقيقة إيه؟

- إيه؟

رد القس سامي عوض بنظرة متململة متوقعًا كلامًا فلسفيًّا ومنطق شاب فائر يجد صعوبة في تزيين كلماته حتى يكتسب إعجابهم...

- المشكلة إني اتكلمت... أو إني عايز أتناقش معاكم بطريقة حرة من غير خوف من التفكير أو التكفير...

فقاطعه بوجه ما بين ممتعض وراجٍ...

- تكفير إيه يا رحيم... مش معنى إني بعاتبك أو بوبخك تقلب الدنيا إني رافضك... أنا رافض وجهة نظرك بس مش رافضك إنت...

فابتسم رحيم ابتسامة صفراء وسأله بلهجة تحدٍّ...

- لو أنا استمريت على طريقة تفكيري يا قسيس إيه مصيري هيكون في الكنيسة لو فرض وتماديت في طريقة تفكيري ممكن تجاوبني؟

صمت القس فأكمل رحيم...

- مصيري هيكون إنك هتعزلني عن الخدمة في الأول اتباعًا لمبدأ التأديب في الكنيسة صح ياقسيس؟ مشكلتكم حاجة واحدة... إنكو بتتكلموا عن المحبة كتير لكن قلوبكم مليانة عفن وتسلط وخداع وأنا

استكفيت وهسيبهالكوا مخضرة...

فقاطعه القس...

- في إيه يا رحيم، أنت مش عيل صغير وده مش فريق كورة هتقول فيه أنا مش مكمل لعب... بص يا رحيم، صلي وأنا هصلي علشانك ده الحل اللي عندي حاليًا متاخدش قرارات مبنية على العواطف وتحاول تركبنا الغلط وتطلع نفسك ملاك...

فجاء هذا الكلام ينكئ على رحيم كالحراب الصيادة للقلوب... فتحرك ومضى من أمام القس دون كلام... مرسف في أغلال العصف الذهني والأفكار التي تأخذ من قوته أكثر ما يلزم... وأخيرًا وهو يبتعد تدريجيًّا عن القس نحو الشارع الرئيسي سمع نداءً باسمه...

" رحيم "

فالتفت رحيم إلى الخلف كي يجد القس يعاتبه وهو يقول له...

- كبريائك صعب...

فجز رحيم على أسنانه غيظًا من هذه الجملة التي باتت مضغة يلوكها كل من يراه أو يناقشه من هؤلاء القوم الذين لا يرددون كلمات فيما بينهم إلا عن الخضوع والطاعة والمحبة والحكمة والصلاة والفهم والعبادة، وهو لا يرى فيهم أحدًا يفعل ولو حرف بدون تعمد أو إشهار للعامة بالصلاح... فهو كان يراهم فريسين قبور مبيضة من الخارج أما من الداخل فهي تتكدس بالجيف و العفونة...

جرجر قدميه إلى بيته ودخل غرفته وأحضر كتابًا مقدسًا كان خاصًّا به يخطط بداخله الآيات التي تلمس قلبه في خلوات الصلاة وكان بعد

ذلك يجري إلى الاجتماعات بجعبة ممتلئة من التعزيات السماوية ويجتر ما استشعره وما وجده من استنارة على أخوته حتى يلاقي استحسانهم ويصبح داخل النمط الكنسي أكثر وأكثر...

لكنه في هذا الوقت لم يأتِ بالكتاب ليخطط فيه من أجل التأمل بل من فرط غيظه وضعه أمامه على مكتبه وأخذ يروح ويجيء كالليث الجائع وهو يمسك فكيه ويضغط بيده عليهما مغمضًا عينيه كمن يتلوى من الألم ولا يشكو...

يكرر بصوت يعلو تدريجيًّا

"كبرياء... كبرياء" ثم صدح بصوت عالٍ

"كبريـــــــــــــاء الكل فاكرني متكبر"

ثم أخذ ينظر للكتاب ويخاطبه...

"كبرياء إيه ده يا ابو الكبرياء ده حتى المسلمين بيسموك "المتكبر"... ليه طيب أنا متكبر علشان بسأل عنك علشان عايز أفهمك صح أنا مش فاهم أنت عايز إيه... خلقتني ليه طيب رد عليا..".

يقول هذا وهو يثبت الكتاب بكلتا يديه فرفعه ثم ضرب به سطح المكتب محدثًا رعبًا في داخله فهو شعر أن شتاته تملك منه وهذيانه أصبح حقيقة فترك الكتاب من يديه وهو ينظر إليه كأنه فقد شخصًا للتو وهذا الشخص هو أبوه...

حرك جسده والتفت إلى الحائط منتفخ الأوداج بعزمه ضرب الحائط بيده حتى يشعر بألم يعاقب به نفسًا تعاقبه على مجونه وشره في تعامله مع ربه وإلهه ومخلصه... لكنه ما زال متحرقًا ومكويًّا بلهيب التساؤلات

التي لا تبرح عقله وهي تخرج له لسانها معذبة إياه ببرود... تجعله فريسة بين قبلية الضمير وشعور القلب ورجاحة العقل ونار الإيمان...

فهو يتهدج في صحراء دون زاد ولا ماء ولا مأوى مصاب بسعار بنات آوى فينبش على لفح هجير عقله داخل الرمال حتى يخترقها ليجد نفسه غريقًا في محيط محاكمة الله وشرائعه... مفكرًا في ذاته هل الصلاة تجني ثمارها الآن... فيجيبه عقله أتتواصل مع الله وأنت تحمل له ضغينة؟ فلم يجد بئرًا ليتقيأ فيه تساؤلاته دون إهانات أو حتى دون أن يرى نفسه يفعل ما يكره إلا الورق الذي طالما وجد معه الوئام والحب وهدى من غثيان عقله المتخم بالاستفسارات والمشاعر المتأججة ملهبة صدره بتأنيب الضمير والصراع الذاتي مع النفس وتداخل الأهواء حجة في زيادة الحيرة التي تنبث عليه جمرًا يتلظى ويشوي أركانه مع هذيانه الذي لُعن به ولا يعرف له دواء أو علاج إلا مسكنات الصراحة مع النفس التي حاول أن يجدها في نقاشاته مع الآخرين لعله يشعر أنه ليس بوحيد لكنه طالما شعر بالخيانة مِمَّن ناقشهم وسعروه بحروفهم ونهروه بأفعالهم التي تحمل القتل المعنوي داخل علبة هدايا مزركشة بالنصائح اللبقة والأفعوانية المحملة بكل ريح نبذ شخصي وعهر أخلاقي ورفض مزرٍ تجعل من هؤلاء المتجادلين المتدينين أمساخ لا يرون إلا ما يريدون ولا يسمعون إلا ما يستحك حلمات آذانهم بقضيب الانحياز والانحراف عن الحيادية...

قرر أن يخرج أجندته التي أهداها له أحد الأخوة في أحد مؤتمرات الشباب الصيفية ناصحًا إياه أن يكتب أفكاره وتأملاته فيها عند خلوته مع الله بشكل منتظم حتى يقرأ ما كتبه بعد مدة من الزمن ويعرف ويفهم نفسه من خلال مراقبته لمستواه الروحي في التأملات ونضوجه الشخصي في صراحته مع ما يكتب...

فسمع رحيم هذه النصيحة لكن ليس كما كان يريد هذا الأخ بل باستفراغ محتوياته الداخلية من تساؤلات وهجوم شنيع على الله الذي لا يجاوبه على تساؤلاته كما يريد...

أحضر قلمًا وأخذ ينظر برهة صامتًا إلى الأجندة حتى فتحها بعد ذلك ممنطقًا قلمه بين بنانه استعدادًا لشن هجمات إنسان على إله...

فكتب...

"يا الله ياعزة الأقوياء وحاجة الضعفاء يا مَن تذللت لك القوة وذابت أمامك القدرة يا صانع الأسرار وعارفها... يا منبع العلوم ومعارفها اصغ إلي أنا الجريح والمعاتب...

علموني أني ابنك فلن أخجل من بعدك وسماوتك... لن أخاف عقابك لأنك تهتم بالقلوب والحق مهما جلبت على نفسي من آهات وويلات يحدفني بها البشر فإنك لا تحتاج للحرف ولا للكلمة فأنا لك بيت القصيد حتى وإن كنت عنيدًا...

سأعاني وأناطح حتى أعرف وتجاوب... لن أرتعب منك يا الله في سؤالي حتى تجيب ولن أبرح من أمامك حتى أستجير بك محاربًا كل سوء تكهناتي فأصغي إلى داخلي قبل حروفي...

يا الله أأناجي أم تحاجي فأنا يتيم الفكرة بغرقي في وحل لعنة التساؤل...

فأنا مدقع بنتن الموت المُكرر في أنفاس حياتي الكئيبة...

عنيفة أفكاري تجاهك لأنك غير مبالٍ لا تجيبني ولا تعاتبني بل تحوم كل الأزمنة تصرخ بأعلى صوتك في المغارب والمشارق ولا مجيب

ثم تأتي عند أذني وتصمت وكأنك تعاقبني... فأنت لا تبالي بما يتلوى من أحناش في رأسي تبث سمًّا مرارًا وتكرارًا لكنه لا يقتلني فهي تتلذذ بعذابي وآناتي الصريرة إثر تمزق كياني وعنواتي... إلى متى لن تجيبني عن ماهيتك ومن أنت؟ قرأتك في كل الكتب والمقالات ولم أجدك... نعم يا الله، فلا تؤاخذني على جهلي فأنا لم أرك... هل لأنك عظيم ومجيد وفوقك لا شيء؟ لأنك أنت الفوق والكل لا تجعلني أراك؟ أأنا ضحل عندما أطلب رؤياك؟

إذًا لماذا تجعلني أتلذذ بسكناك ورؤياك بعد الممات؟

فهديتي أن أراك أيها المسيح، وأنت تجلس على يمين العظمة... إذا كنت في كل الأحوال سأراك لماذا تحجب وجهك عني الآن؟ تظهر لموسى وجهًا لوجه وتكون عمود نار في ليل اليهود وسط تيه الصحارى... وتتجلى في إنسان المسيح، ظهرت لمن لا يحتاجون ظهورك وأما من يحتاجون أهملتهم... عاملت الكل على أنهم واحد... ألا تعلم يا الله أن الطبيب لا يعالج الكل بنفس الدواء؟!

إذًا لماذا وحدت علينا الحرمان من رؤياك؟

أيتعلق الأمر بمزاجك؟

اعذرني يا الله، فأنا حيران... نفسي دائمًا في فصام لكني أثق في عقلك فأنت قريحة الإدراك وأصل الأشياء... فأنا لا أنسى أبدًا يوم ما قال القس سامي في أولى وعظاته أن

"من يراك يموت فلاهوت الله لن يقدر أن يراه أحد"

ومن قال يا الله أني أريد أن أحتويك أو أحدك أو أستهين بك؟!

فأنا لا أريد سوى رؤياك... لا أرغب سوى في اليقين... فشكي في وجودك حق لأنك جلبت لي عقلًا ينقد ويحلل ويفكر فلا تفكر أني أريد أن أتصلف عليك، بل يارب أنت تعلم أني أريد الحق...

أراك تسألني وتقول لي وهل إن ظهرت لك ستؤمن بي؟

بالطبع نعم يا الله، فأنت الخالق والخالق يختلف عن المخلوق... فلماذا الحجبان والبعاد؟

فأنا لا يكفيني ما قاله لي الأخ "وديع" في مؤتمر الشباب عن الروح القدس الذي يسكنني والذي يجعل الإنسان لا يحتاج لأن يرى الله وعندما ربت على كتفي وذكر لي قصة توما التلميذ الذي لم يصدق قيامتك إلا بعد أن ظهرت له واحترمت عقله وعريت أمامه جروحك...

إذًا لماذا تبخل علي بمثل هذا؟

هل لأن هذا الروح المقدس يغنيني عن الشك؟ فعذرًا يا الله أنا لا أفهم ماهية الروح حتى الآن... قل لي ماذا تعني كلمة روح فهي كلمة تطلق على أي شيء مبهم ومجهول...

حقًّا يارب، هل تقبل بإنسان قالوا له في كتب أن هناك روحًا فآمن بهذا دون أن يعلم ماهية هذا الشيء؟

هل تشعر يا الله بهذا داخلي تأجج حيرتي يتجلى عندما أقف عند مثل هذه التساؤلات العقيمة... فلا أحد حتى الآن في المسكونة أجابني عن ماهية ما يسمى "الروح" لأنهم بالفعل لا يعلمون...

ههه ذكرتني بهذا الأخ في أحد اجتماعات الأحد المسائية الذي كان يعظ عن عظمة الروح القدس في تحويل الخاطي والجحيمي إلى بار

وسماوي فسألته في ذيل الاجتماع عن ماهية الروح فقال لي

"إيه ماهية دي؟"

أترى يارب مدى جهل من يعظوا عنك لمجرد أنهم محتمين في ترس أن الله يتكلم في أفواههم، فيجب أن يحترم المستمع وأنا... أقوالهم بعد هذا التسلح...

لكنه وعندما شرحت له معنى كلمة "ماهية" قال لي أن الروح القدس أو لفظ كلمة الروح تشير إلى ذات الله أو أقنوم من الأقانيم الثلاثة وحينها لا أنسى يارب عندما كنت أريد أن أفك حزام بنطالي كي أتبول في فمه حتى لا يفسر الماء بالماء فيما بعد...

فأكثرية البشر يارب لا يعلمون معنى أهم ما ينطقون به وكل شيخ ومفسر وله تفسيره وله مريدوه فتعددت التعاريف ليضيع المعنى الحقيقي فمن أصدق أنا؟

الكل يظن أنه هو من يملك التفسير المنطقي والصائب ومن هنا نتجت الطائفية... أتعلم يا الله أنا أرى ذنب الطائفية في رقبتك... نعم يارحيم يا كبير، فأنا التراب اصبر علي ولفحني بلطفك كي أحاججك بدواخلي المضرم بها براكين الحيرة...

أيا الله أليس أنت من أنزلت كلمتك وكتابك؟ إذًا فلماذا جبلته غامضًا وغير واضح حتى يلجأ العامة إلى المفسرين؟ فالذى أعلمه يارب أن كلمتك للعامة والخاصة، للكبير والصغير، للفقير والغني، للسيء والجيد، إذًا لماذا تجعلها غامضة وتجعل أبسط حقوق الحياة مرتبطة بأفواه ناس يزعمون أنهم عارفوك؟

لماذا تولي على الناس... ناسًا كي يفهموا كلامك؟

أتشعر يا الله بما في داخلي من حنق تجاه هذا السؤال الذي يكبسني في الصحو والمنام دون توقف؟

بالله عليك يا الله كلمتك التي هي تشريع الحياة وقوانينها تجعل عليها متسلطين! لماذا يارب تجعل حياتي في فم حياة رجل مثلي من الممكن أن يمشي على هواه... فأنت أعلم بحيدان الإنسان أكثر مني يا الله... أجبني اعطني أي شيء يهدئ ناري... فالذي بداخلي من بُغضه هذا الغموض والتجاهل الذي تتعامل به معي يفوق التحمل والصلب الذي تفتخر أنت به كطريق الخلاص الوحيد الذي ليس له ثان...

فهذه التساؤلات يا الله جعلتني منقسمًا على ذاتي أنا لا أعرف من أنا... هل أريدك حقًّا أم هل كبريائي كما يقول هؤلاء الملتصقون في دكك الكنائس دون وعي... أم هل هذا كله منطقي وأنت غير موجود... مجرد بدعة أبدعها في البداية إنسان ثم استخلصها موسى وصدقها شعب إسرائيل ثم أكملها المسيح حتى أتى بها محمد...

يا إلهي ما الذي أقول؟!

أتشعر... أترى المقترحات التي طرحتها؟ أنا من يا رب حقًّا أجبني.. فأنا أناجيك من هذا الورق حتى أتحكم في أفكاري ولا أشت... ولا تقول لي كما يفعل هؤلاء العميان عندما يقولون لي اقرأ الكتاب وصلِ والله سيجيبك...

أتعلم لماذا لن أقبل بهذا الحل؟

لأني أفعل ذلك فعلًا من سبع سنوات وأنت حقًّا لم تجبني ولا تتهمني

بالصمم يا كبير فأنت الكبير حتى وإن كنت أصمًّا ماذا تريد أكثر من تذللي لك ودهس كل مالي لأجل إجابة شافية منك؟

فالذي أعلمه أني أنا الخروف الضال وأنت الراعي فإن شتتُّ أنا فأنت الذي ستجري خلفي لا أنا الذي أتمرغ في تراب الأرض وأفتعل مشاعر وقشعريرة لمجرد تخدير ذاتي...

يا الله، أنت تعلم كل اللغات ورحيم في كل الأوقات فإن كنت أنا لا أفهم إلا لغة واحدة فأنت دورك كان أن تتكلم بلغتي... لكن ما يقوله لي هؤلاء العمي عن ألمي "إنك يجب أن تتعلم أنت لغة الله"...

بالله عليك أنت يا الله لماذا فيلم الرعب هذا كي أسمعك أليس بسهولة تقدر أن تشفي ناري بما تعرف لأنك تعرف طريقة فهمي... فإذ كنت أنا أعمى وأصم فالمسني حتى أشعر لكنك لم تفعل كل هذا فعلًا...

فأنا لا أدينك ولكني أستفسر عن كل هذا التجاهل يا الله، فهل أنت قاسٍ؟ أنا لا أعلم... فإن كنت تشعر بي ولا تجيبني فأنت قاسٍ... وإن كنت لا تشعر بألمي هذا فأنت أيضًا قاسٍ لأنك خلقتني أتحسس هذا الألم وأنت لا... فهل أنت قاسٍ؟

كل المؤشرات الحالية في حياتي تشير إلى ذلك وعفوًا أنا لن آخذ بكلمات على أنها حق وأتجاهل وجعي الواقعي فالأولوية للواقعية عندي... ألمي وجروحي أنت لا تجيبني عنها ولا تشفيني منها وأنا أمين يا الله لا أحاول أنا أكون مُرائيًا فأنا لا أذهب إلى الكنيسة وأفتعل التعزية تحت تأثير الموسيقى التي كل علماء النفس أثبتوا أنها قادرة على تغييب العقل... ولم أصلِّ يومًا بكلمات مزركشة بترتر رخيص حتى أكسب إعجاب المستمعين ولم أقتحم عالم الوعظ والتفسير لأني أعلم أني بشر

وغير عادل فمهما فسرت تداخلت أهوائي وميولي في هذا...

"آاه" يارب صدقني لا أبرر نفسي أمامك لكني فعلت ذلك فعلًا إيمانًا بك أنك إله لا تهتم بالمظاهر وتعرف القلوب... وهذا ما أعجبني فيك أني سمعت أنك إله تهتم بالقلوب، لكني حتى الآن قلبي مفطور يا الله في وهن يعرج وسط بوار معرفتك بظمأ مقيت إلى إجابة أو رشفة تندي بها القحت الذي يسكن داخل أسواري...

هل تذكر يا الله عندما قررت أن أصوم عن الطعام والشراب حتى أجد إجابات لما يجول في عقلي لمدة ثلاثة أيام متواصلة حتى أنهكت تمامًا وأنا أقرأ في الإنجيل وأصلي لك أن تكلمني كما أفهم لا كما أنت تريد؟

فمهما تكلمت باللغة التي لا أجيدها فهو ليس ذنبي أني لم أفهم... أتعلم لماذا، لأني مقتنع تمامًا أنك تقدر أن تجيبني كما أفهم لأنك الله وتستطيع كل شيء ولا يعثر عليك أمر ذلك يا الله الذي أعلمه أن العرب يتعلمون بالعربية لأنهم يجيدونها والأعجميين يتعلم كل منهم بلغته... لماذا إذًا عندما أطلب سماعك لا أجد ردًّا شافيًا... الكل يلومني ويقول لي أنت الأصم... الله يتكلم لك في الطبيعة والكون في السمك والماء... في الطيور والسماء فمن أنت أيها الأبله كي تحد الله في إجاباته؟

يا الله، أنت غير محدود لكني أنا محدود لذلك يجب أن تكون إجابتك لي محددة على فهمي وطلبي... هل يا الله رأيت مدرسًا يعطي طفلًا في الروضة قواعد الفيزياء ويعاتبه على عدم فهمها؟ بالطبع لا... لذلك أنا أقول لمن يقولون لي أنك تتكلم بشكل واضح لهم قولوا لي ما هو قصد الله من الشيء الفلاني فأسمع إجابات مختلطة كل منهم يعتبر ما يقابله في يومه أنه إجابة لشيء يدور في خلده هو لدرجة أن هناك أناسًا يخلطون ما بين

الحظ والإرادة الإلهية والسماح الإلهي كخلطة الطبيخ لا يفهم ماذا يحدث له لكن كل ما يقدر أن يقوله أن الله كبير وبيكلمنا في كل شيء... وهذا هو لب الموضوع لما لا تكلمنا بالعربي نسمعك وتسمعنا ونصير نحن وأنت في علاقة مباشرة ونريح كل المواضيع ولا نترك للشك مجالًا...

صدقني يا الله، أنا لأني أعلم ماهيتي وقدر محدوديتي لا أخدع نفسي وأقوم بتأويل مشكلة في يومي بأن ربي غير راضٍ عني... لأني أعلم أنك لا تعامل البشر بهذه السطحية لذلك يا رب أتعجب وأتألم من عدم إجابتك لأن ذلك حينها يطلق العنان للشك فيك وتأكيده...

أنا أعلم يارب أنك تقدر بالطبع أنت الحكيم لذلك لم لا تعتبرني كطفل الروضة وتجاوبني بما أفهم؟!

أتذكر جيدًا يا الله عندما ذهبت إلى مدرسة لدراسة الكتاب المقدس حين كنت في الثامنة عشر من عمري حالمًا أن أخرج منها بولس الرسول الثاني لأعلي رايتك عاليًا بالحق وسط الشعوب من خلال تدعيم معرفتي بك عن خبرات سابقة سبقوني فعاشوا معك فيؤهلوني لخدمتك على أكمل وجه وأتذكر جيدًا أننا كنا من جنسيات مختلفة وكان هناك قس من بلد عربي يرأس كنيستين في بلاده لكنه جاء كطالب معنا في هذه المدرسة لكنه كالعادة كان يعامل معاملة خمس نجوم مع القائمين على المدرسة لمجرد أنه من بلد أخرى وبعد أن تعارفنا وقضينا وقتًا ليس بقليل مع بعضنا البعض كان هذا القس الأربعيني الذي يشوب لحيته المهذبة بعض الشيب الذي يعطيه الهيبة والوقار مع جسده الفارع قد فرض نفسه علينا كطلاب أبًا روحيًّا بحسن إنصاته وخفة دمه وشبابه المتواصل معنا كشباب يافع يريد أن يكون خادم الخلاص، كنت حينها غضًّا وعقلي بكر

لا يرى غير محاربة الشهوات والنزوات التي بدأت تتكالب على جسدي يومًا بعد يوم تارة تغلبني والضمير يؤنبني وتارة أنتصر وأشعر بالنضج والورع ومع الأيام جمعتنا كطلاب شباب علاقة طبية بهذا القس وكنت من المقربين إليه أنا وشخصان اسمهما "ديفيد" و"مينا"، وذات ليلة قال لي أنا وديفيد أن نأتي معه خدمة في بلد قد دعته للخدمة في الفترة المسائية بعد الدراسة وقد صودف أن هذا اليوم هو الأحد فاحترامًا له "كقس" وافتخارًا به كأجنبي أوكلوا له هذا اليوم مسؤولية إقامة أجتماع كسر الخبز أو "التناول" فذلك طبيعي بما أنها كنيسة إنجيلية وحدث وأقام صلوات الذكرى بيوم عيد الفصح الذي جمعت فيه أنت تلاميذك إلخ... فأنت تعلم القصة أكثر يا الله...

وبعدها ناول القس في رزانة وأقام بقية الاجتماع ووعظ وكان الجمع غفيرًا من البسطاء والمحتاجين فكان اليوم كأنه يوم من أحد أيامك وأنت تمشي وسط المعوزين وبعد أن هدأ الجميع من انتفاضة الروح القدس الذي لمستهم قال قس الكنيسة نفسها من يريد أن يبرأ من مرض أو عوز فلينتظر فيما بعد الاجتماع وختم الاجتماع أخيرًا وأنا كنت أنظر كل ذلك وجاء دور البسطاء في التقدم فكان ينفخ ويقول كلام غير مفهوم يدعوه "التكلم بألسنه" ويزجر البسطاء فينتفضون تحت يديه وتبدأ عليهم أعراض غريبة أحدهم أخذ يتكلم بصوت غريب كالمسوس وآخر أخذ يتمرمغ في الأرض وهو يصرخ والأغلبيه يسقطون فقط للخلف عندما ينفخ فيهم وهو يقول "في اسم يسوع"...

شاهدت كل هذا يا الله وأنا غير مقتنع بالفعل بما يحدث لا أعلم لماذا لكني فهمت فيما بعد...

دعانا راعي الكنيسة أن نتشعى في بيته قبل أن نعود للمدرسة وهناك بالفعل ذهبنا وتعشينا وكانت فرصة نتسامر فيها في غرفة الجلوس الخاصة ببيت الراعي حينها طلب مني القس الأجنبي أن أضع جهازه المحمول على الشاحن بجواري فأخذت محموله ووضعته في الشاحن وكأي شاب في سن الثامنة عشر يهتم بالأجهزة الحديثة خانتني يدي ودون علمه أخذت الهاتف كي أتفقد إمكانياته...

أتعلم يارب ما وجدت في الهاتف؟

أكيد تعلم لكني أريد أن أعبر عن غضبي فأنا وجدت أفلامًا إباحية تكفي عشرة أوباش للاستمناء عليها مع العلم أنه متزوج ومعه ابنه في عمري... ومن هنا يا الله وجدت نفسي ألعنك...

نعم فلتغفر لي صراحتي فأنت تعلم أني فعلت من ضيقي...

كيف؟ وكيف؟ يحدث كل هذا... أليس هذا مرسلك أليس هذا خادمك أليس هذا هو نائبك على الأرض والذي شطر عقلي حينها هو روحك القدس هذا الذي تكلم به، أي روح قدس هذا يتكلم على لسان أحدهم استمنى على فيلم إباحي قبل أن يقيم شعائر التناول يوم الأحد... هل أنا أبالغ؟

بالطبع لا يا الله، أنا لا أبالغ فهذا حدث بالفعل... ضع نفسك مكاني أرى أحدهم يفعل كل هذا وأخيرًا يخون زوجته وربه في اليوم. أنت تعلم كم مرة تستخدمه كي تفعل به معجزات أي معجزات هذه تستخدم فيها النجس... أنا معك أنك لم تأتِ لتدعو ابرار إلى التوبة بل خطأه لكنك أنت لا تدعوه هنا... أنت تستخدمه فهو يتكلم باسمك ويزيف وأنت صامت كل هذا يجعل أي بشر يشك فيك...

يا الله، أرجوك اشعر كما أشعر من صدمة ودمار نفسي وحطام أفكاري التي باتت تؤلمني كالسرطان...

فأنا يبست كشاه عجفاء تقتات على روائح النبات في خراء بين الصخور الصحراوية من شدة الجفاف... ناقشني... هلم تحاجج معي... قل لي في ماذا أفكر عندما أصادف مثل هذا، كيف أحكم على الصواب من الخطأ إذا اتضح لي أنك تستخدم مثل هذا الرجل في نشر كلمتك والحفاظ عليها والذي وشم طلسم الشك على قلبي أكثر، هو وفضائح باباوات الفاتيكان التي أصبحت معلونة في كل الفديوهات على المواقع الاجتماعية...

بالله عليك كيف لي الآن أن أفهم الصواب... أنا أعلم جيدًا أنك أنت لم تفعل ذلك وأن الخطأ خطأه ولكنك صامت عليه مما يؤدي إلى ولادة الشك في قلبي في أنك غير موجود من الأساس...

إذ أنت صامت وخيرة رجالك الظاهرين الذين لديهم كلمتك مشبوهين وغير أُهل حتى أن يتحكموا في أنفسهم في حين أنهم يتحكمون في شعوب...

أما كتابك فأنا ما قرأت أغمض منه كتاب في حياتي... ومنه وبه بدعت الطائفية والتحزبات إثر كل تفسير يغالط ويهاجم الآخر لمجرد أنك حين أوحيت للكاتب لم تتوفقا أنتما الاثنان في توضيح وجهة نظرك فكيف إذًا أعرف الحق وأعرفك إذا كان مصدر معرفتي الوحيد بك يحتاج إلى تفسير؟!

يا إلهي... مصدر معرفتي الوحيد بك يحتاج إلى تفسير؟!

أترى فاجعتي يا الله وأنا تائه وسط كل هذا الدوامات اللانهائية من التبريرات والدينونة... أسقط في بئر من الأفكار لا قرار له ولا جواب فتودي بي إلى سرداب من الألم والوحدة والتأمل الكافر الذي يكتنف عقلي ودماغي بشراسة فأحادث نفسي...

نعم يا الله، غموضك جعلني أنا نفسي في فصام أنت سببته بصمتك وعدم حركتك... أتريد أن تدينني الآن إذًا دينني... دينني لأني أتألم في البحث عنك وأفكر فيك في كل نفس، دينني لأني أصارحك بأفكاري وآرئي ولا أفعل كما يفعل الناس لأني لا أريد أن أكون منافقًا أعبدك خوفًا من عذابك وكأنك جلاد حسب مصلحة واستعباد، أو دينني لأني لا أريد أن أكون مرائيًا في عبادتك أعطيك حقك في العبادة الصماء ثم بعد ذلك أتجه لعالمي وكفري بك في كل فعل... دينني لأني أشتهي محادثتك كما يشتهي المحتضر الحياة فأتكلم معك بعفوية وصدق، معطيًا إياك قدرك كمعالج نفسي وكياني فلا أخجل أمامك أن أتعرى بعفني ووساختي أعلنها لك حتى تغسلني من كل أمراضي ومعاناتي كي أكون بك معافيًا...

نعم يارب، فأنا لا أُعاملك كأحمق يشمخ عليك بأفعال أو عبادات تقدم... لأني صريح معك لا أخاف عقابك لأني أعلم جيدًا أن الأب الجيد لا يعاقب ابنه الطالب للمعرفة بل العكس؛ هو يفتخر به أمام الجموع انظروا كيف ابني سليط اللسان... فإن كان الأب بهذا التفهم كم وكم أنت أيها الإله تتفهم شكوكي واستفهامي وقلة بصيرتي في محادثتك أنت الله لا تنظر للمظاهر بل للقلوب تستخلص الإخلاص في سؤالي عنك...

لكنك مازلت تقسو علي بصمتك يا الله فكثيرًا أتفكر ما الفرق بينك وبين الصنم فالصنم له كتاب مقدس وله مريدوه وله معجزاته المسجلة في أساطير وعندما تحدثه لا يجيب فما الفرق بينك وبين الأصنام يا الله إلا بفاعليه الحياة التي لا أراها فعلًا فيك...

تصور معي يا الله أني عندما أفكر فيك أجدك صُنع عقلي ليس إلا... فأنت غير مُبرهن على وجودك بتاتًا كشخص عاقل... يا يسوع، أنت غريب لا أشك أن ما كتب في الإنجيل عن تعاليمك أجد فيه الكثير من الصواب لكني يارب إحقاقًا للحق قد أتى بهذه الفلسفة بوذا وزرادشت قبل يسوع بقرون وكتبهم المقدسة تحمل نفس الصفات حتى زرادشت نفسه عين نفسه مرسل الإله "اهورمذدا" وأرسل رسله إلى الهند واليونان ينادون بتعاليمه التي ليس فيها جديد عن تعاليمك فهو قال

"بأذنيك استمع إلى هذه الحقيقة وبعقلك افهمها وبقلبك يجب أن تحبها، انهض أيها النائم، أيها الغافل، أيها الكسول، وانشر كلمات الإله في كل مكان نمت فيه أو صحوت فيه أو أكلت أو شربت فيه انهض وقل كلمة الإله ولا تكن متهاونًا في الخير"

حينما أسمع أو أقرأ هذا الكلام لا أجد أنه مختلف في طريقته عن الإنجيل فأنت بعده قلت

"حب الرب إلهك من كل قلبك وقدرتك وفهمك"

انت لم تدعو بجديد... المحبة وتكلم عنها الجميع في قدم الأزل إنها هي حلقة الوصل المفقودة كحل إصلاح العري الاجتماعي البشري وما يزيدني ريبة وشك فكرة العلم والمنطق الذي يثبت وجود المسيح كإله... يا الله... يا يسوع... يا روح الله القدس... لا تعتبرني أني أنقضك

بال"ض" لكن افهمني على أني أنقدك بال "د" فأنا أريد تجريد الحقائق وتفنيدها في عقلي حتى أصل للحق كي يرتاح فهمي...

فحادثة مثل حادثة صعودك أمام التلاميذ بعدما كنت تظهر لهم بعد قيامتك لمدة أربعين يومًا كافية أن تخضخضني بعنف في براثن الشك والمنطق... أتعلم يا يسوع، أنك كنت تظهر لهم لتبرهن أنك لحم ودم وعند الصعود أخذت تصعد بمرأى من عيونهم... الذي فجعني هنا يارب أنك لو أكملت خروجك إلى الفضاء بسرعة الضوء فإنك يا يسوع لم تغادر مجرة درب التبانة بعد... نعم فأنا قرأت في الويكبديا أن قطر مجرة درب التبانة 100000 سنة ضوئية وأنت فارقت الأرض من 2000 عام تقريبًا...

فقط تماشى مع غبائي أليس هذا نوع من التضليل يا الله؟ ماذا إذًا لو كان المسيح في طريقه إلى يمين عرش الأب بسرعة الضوء فهو الآن تائه في مجموعة شمسية ما في داخل المجرة وإذا استمر على هذا الحال فنحن أمامنا على يوم القيامة سنين هذا عددها هذا إن أخذنا العلم حكمًا وهذا أيضًا الذي أقوله أن العلم لا يدعم فكرة المعجزات بل ينقضها لأن ببساطة عندما يُعرف السر يبطل العَجب... فهنا لو أخذنا العلم حكم سينقض العلم حادثة صعودك

كل ما في داخلي سراب وتيه في برية لا معين لي فيها سوى الظلام الذي أتمناه حتى لا يزيد عذابي وأنا أرى نفسي أتألم من ضياء التفكير والمعرفة التي لا تريح ولا تداوي فحقًّا صدق من قال "في كثرة المعرفة كثرة الهم" والألم والشكوى...

لكني يا الله أشعر داخلي أني أتألم على حق فتعال واحكم بنفسك

على ما قيل عن عمر الإنسان... في التوراة الذي هو كتابك المقدس مجموعًا على الإنجيل... يتراوح ما بين 6000 عام لا أكثر وعندما أرى عمر الإنسان في العلم أو ببساطة الموسوعة الإلكترونية أجد أن عمر الحضارات على الأرض يتجاوز الستة آلاف عام قبل الميلاد وهذا تاريخ الحضارات والذي يعني أن الإنسان كان موجودًا قبل ذلك بكثير حتى يكون شعوبًا وقبائل تنتشر حول العالم... وعندما أرى الديناصورات أنها من ملايين السنين وهناك من عظامها موجودة أمامي أراها بعيني فكيف يكون عمر المخلوقات في كتابك 6000 عام قبل وبعد الميلاد مجموعين... ضع نفسك مكاني يا الله ولا تجاوبني مثل هؤلاء أشباه العارفين وأنصاف القارئين الذين يلعبون بالكلمات ويقولون أن اليوم لدى الله بألف عام وببساطة لا أقبل مثل هذا الكلام لأنك لم تقل هذا أنت قلت "كان صباح ومساء" بمعنى مرور يوم وعندما أستفسر عن هذا حينها يقولون أني معاند وأريد أن أقاوم روح الله لمجرد الكبرياء ولا تريد أن تؤمن ببساطة... الإيمان شيء جيد ومريح بالطبع لكن هذا عندما يكون الإيمان منطقيًّا

إذًا بمن أؤمن هنا؟

بالعلم الذي أراه وأعيشه ويعالجني ويساعدني في حياتي اليومية أم أؤمن بقصتك التي لم أرها ولم أعاصرها وحتى تواريخها تعتبر مغلوطة بالنسبة للواقع وعندما يأتي أحدهم يتحايل على العلم من هؤلاء الزمرة الذين يعتبرون أنفسهم حاميين الإيمان يشطحون بتفسيرات جهنمية لا يصدقها طفل لا زال يتبول في الحفاضة فمهما فعلوا يارب لن يكونوا علماء هم فقط يتحايلون على العلم ويدعون نظريات من "جوجل" أصلها ويقولون أنها موثقة من الجامعة الفلانية في أمريكا وأنها تدرس

في الجامعة الفلانية في كولالمبور... ويهذون شرقًا وغربًا بأبحاث هم لم يقرأوها حتى!.. بل قرأوا مفادها فقط لا غير وعندما تقول لهم اشرح لي النظرية العلمية يقول أنا الذي يهمني النتيجة إنما النظرية فأنا ليس بعالم...

إذًا فماذا أفعل أنا الآن ساعدني يا أعلم العالمين أصدق من فيهم بالطبع لن تجيب كالعادة لذلك يا الله تركت العلم وأهله ولم أتناقش مع شخص ما فيه... إن كان العلم يثبت وجودك أم لا... لأنه سلاح ذو حدين ومجاله مثلك مبهم لا يعلمه غير أهله فقررت أن أجعل حكمي على صوابك وخطأك هو الأخلاق...

نعم يارب، وإن كنت تعتبرني إنسانًا حقيرًا لا يصح له أن يحكم على صواب وخطأ إله فأنا لا أقصد صوابك أو خطأك كإله بل كمعتقد يؤدي بي إلى معرفة الحق في هذا الزخم الألوهي المتفشي في العالم منذ عصور الأوثان وحتى ظهور إبراهيم فالجميع يجب أن يؤمن بمعتقد...

لماذا؟

لا أعرف لكني ولدت فوجدت ذلك حادثة ويحدث وفطمت على الالتزام الديني دون وعي وأن أصلي قبل النوم كلمات لم أفهم معناها حتى سن السادسة عشر...

آاه يا الله، إن كنت تشعر بما يوخز في قلبي الآن من ألم ووجع يتجدد دون شفاء ولا دواء فأنا أتذكر أول مرة فيها أصابني هذا الألم عندما بدأت أقرأ في التوراة أو العهد القديم كما يحب أن يسميه البعض بعد أن نصحوني أن لا أبدأ به بل أقرأه بعد إتمام العهد الجديد... وحدث وأتممت العهد الجديد وأنا مبهور بالقوى والمعجزات مع أني كنت لا أفهم ثلاث أرباعه...

لكنني يجب أن أجاري من حولي في مجموعة المؤمنين في زعم فهمي حتى لا أُنبذ وأصير مرذولًا وسطهم... فلا شك أن ما كان يقدم لي في هذه الآونة من علاقات ووقت ملئ وشعور بالذات كفيل أن يجعلني عبدًا لقوانين الكنيسة في هذا الوقت ولا سيما أني أصبحت عضوًا فعالًا في وقت قصير وأصبح بعدما كنت لا أعرف ماذا أو ما أنا في هذا الوقت أصبحت شخصًا مقبولًا وله مريدوه حتى لو كانوا لا يتعدون على أصابع اليد فكفى الشعور بالذات في مثل هذه الأوقات...

حينها بدأت في إتمام العهد القديم وبدأ من هناك رحلة التوهان يا الله في برية "سُوف" التي سكنت ذهني حتى الآن عندما قرأت من سفر "اللاويين" الإصحاح الرابع والعشرين قصة شلوميه بنت دبرى وابنها الذي قيل أنه جدف وسب على الإله

"فكلم الرب النبي موسى وقال له أخرج الذي سب إلى خارج المحلة فيضع جميع السامعين أيديهم على رأسه ويرجمه كل جماعة إسرائيل قائلًا كل من سب إلهه يحمل خطيته ومن جدف على اسم الرب يقتل"

وهنا توقفت ياالله عند أمور كثيرة عصفتني مدمرة داخلي قضبان التسليم والإيمان الأعمى عندما فكرت في أنه كيف أن إله الآلهة ورب الأرباب ومالك الملوك يحكم مثل هذا الحكم على هذا الإنسان...

بالطبع ردّت عليّ نفسي لأنه سب الله أهانه وقل من قدره...

فجئت أجيب على نفسي كأني مصاب بفصام... إذًا من هو المسيح؟

أليس هو نفس الإله... أنا قد قرأت في العهد الجديد أنه ضُرب وشُتم وتُفل عليه عند الصليب والتمس للبشر المغفرة بحجة صعقتني وهي

"اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون"...

إذًا يا الله بالطبع هذا الغريب الذي سبك في أيام موسى لماذا حكمت عليه بالرجم والموت المعذِب وهو لا يعلم ماذا يفعل... أعلى الجاهل حرج؟! أم أنك انتهجت قاعدة "القانون لا يحمي المغفلين" في هذا الوقت...

حينها يا الله شعرت أني أقف أمام إله لديه انفصام في الشخصية وشككت لأول مرة أن يكون يسوع هو الحق وإله التوراة هو الخدعة لكني وأدت شكوكي داخل قلبي واستمررت في حياتي نظريًّا لكن قلبي من الداخل ينشش من التأجج والغليان...

فكيف إله مثلك يعاقب إنسانًا بالموت لمجرد أنه أهانك فهل بهذه الإهانة يا الله أقل قدرك؟ بالطبع لا، وهل بهذه الإهانة تأذت نفسك؟ بالطبع لا، فأنت الشافي والعافي هل بهذه الإهانة يهتاج غضبك؟ بالطبع لا، فأنت الكبير العظيم الرزين الذي لا تتحكم فيك مشاعر... إذا كنت أنا الإنسان عندما يقذفني طفل من أطفال الشوارع بشتيمة أو حجر أبتسم له وأمضي حتى أعلن له عن محبتي له بالرغم من خطئه الذي يؤذيه هو قبل أذيتي أنا، فأنا أعلم حاله من شكله وأن لا أحد سوي نفسيًّا أو طفل طبيعي يفعل هذا ما بالك أنت الإله الرحيم العطوف الأب والأم... الراعي والحكيم... كيف تقتل شخصًا لمجرد أنه أهانك مع العلم أنه بتجديفه آذى نفسه ولم يؤذك... حقًّا يا الله أنا لا أصدق أن مثل هذا الفعل يخرج من إله سوي...

إذا كنا نحن البشر نعذر غباء الآخرين والمسيح أكد ذلك بفعله... كيف لي بعد ذلك أصدق هذا العبث الذي يقولونه عنك...! ويا الله أنا

لا أقلل هنا من شأن هيبتك ولا كبريائك إنما على النقيض أنا أفكر أنه من هو الإنسان حتى يستفز إله الآلهة بتجديف...

هذا بالفعل أمر غير منطقي أنت المرُيَث والصبور واللطيف وطويل الأناه لن تضع نفسك في منزلة مثل هذه لأني أرى هذا بعيني الآن فأنا أرى الملحدين على المواقع الاجتماعية يتباهون بإهانتك ويتفننون في شتمك... فلماذا لم أرك تعاملهم مثل هذا التعامل القاسي وهو قتلهم وترويع الباقين بهم... الإجابة المنطقية لأنك أعطيت الإنسان حرية ولا تتعدي عليها لئلا تناقض خلقك... لكنك في التوراة خالفت أي منطق وأي إنسانية فكيف تكون أنت دكتاتور وأنت المفروض أنك أكثر شخص ديمقراطي ويحترم الإنسان...

لماذا في هذا الوقت من الزمن جاء نبي مثل موسى وكتب مثل هذا الكلام وحكم مثل هذا الحكم...

اسمع هذا التساؤل يارب الذي راودني حينها فأنا قد قُلت في نفسي لم لا موسى كان يستغل فترة الطفولة البشرية حينها وقدر أن يوهم الناس بأنه يكلمك وخصوصًا أنه لا أحد كان يراك أو يسمعك غيره هو... وبالتالي زعامه أن يختلي أحد على جبل ثم ينزل منه بشريعة شيء مقبول لأن لا أحد يسمع ولا أحد يرى...

أترى يا الله تشكيكي أين وصل بي فأنا مختل عقليًّا فعلًا بمعنى الكلمة أشكك في الأنبياء من فرط حيرتي لكن المعضلة هنا أن تشكيكي هذا لا يعالجه غير العمى وعدم التفكير وهذا ما أرفضه رفضًا باتًّا فأنت خلقتني كي أقتنع ثم أؤمن لا كي أؤمن ثم أبحث عن سبب يقنعني بإيماني ويبرد ناري...

فمن موسى بدأت هذه الشريعة الدموية نعم يارب دعني ألفظ وجعي أمامك فموسى والتوراة الشريعة الدموية أكثر من أي شريعة قرأت عنها أو قرأتها... فاليهود كانوا جوعى للدم مصابين بسعار نفسي وبعلاقة عشق أسطورية مع الدماء...

عندما أتذكر تاريخهم الذي أقرأه أتقزز من تعاملهم باسمك في سفك الدماء كما فعل يشوع في أطفال وشيوخ أريحا عندما أمرته أنت بإبادة حتى الحيوان من هذه الأرض بمعنى أصح إبادة عرقية كل هذا باسم الدين والرب... المرأة تكون حاملًا فيأتي جندي إسرئيلي يضع سيفه في بطنها يبقرها هي وجنينها وفي الأخير يقول أن هذا فعل إلهي سأكررها لك ياالله أن كنت أنت من أمرت فعلًا بذلك فعفوًا... سأكفر... مع العلم والأكيد أن الله لا يفعل ذلك ولكن التوراة يشهد بذلك والإشكال هنا يا سيد الكون أن كل أفعالهم هذه يلصقونها فيك وبما أنهم الأولون في معرفتك فقد ورثوا هذا التشوه عنك في الأزمنة التالية...

هل أنا أتبلى عليهم أو أشوه صورة العهد القديم كي أبرر عدم الإيمان؟ بالطبع لا يارب فهي صورتهم مشوهة من شعرهم لإخمص قدمهم فتعال نتحاجج في تاريخ إسرائيل من البداية الذين خصصوا ذاتهم شعبًا مختارًا لك...

فمن البداية كان إبراهيم... وأنت وعدته أن نسله سيمتلك أرض كنعان التي كان يسيطر عليها الفلسطينيون(سفر التكوين إصحاح 10إيه 19") وكانت تخوم الكنعاني من صيدون في الشمال حينما تجيء نحو جرار إلى غزة في الجنوب وكان هذا التقسيم بعد حادثة الطوفان مباشرة تقسمت هذه الأراضي التي لا صاحب لها واتخذ منها أهلها موطنًا لهم

من البداية ومن هنا تعال ننظر لشعب إسرائيل اللقيط والعبيد هم أبناء يعقوب الذي ولد يوسف ونزل إلى مصر ثم بعد رحلة تعلمها جيدًا يا الله دعى إخوته الإحدى عشرة وأباه ونزلوا إلى مصر استوطنوا فيها...

كل هذا يا الله هم عبارة عن رحالة لا بيت لهم يجرون خلف مصلحتهم وغذائهم ونكاح النساء...

انظر لأنبياء اليهود داوود وابنه سليمان وقبله شاول الملك وإبراهيم كلهم يأخذون المرأة للنكاح... داوود يقتل أوريا الحثي ويزني مع إمرأته... وعندما تعارك سبط بنيامين وإفرايم اختطفوا البنات اختطافا واغتصبوهن تحت شعار الزواج...

أولاد إسرائيل الذين نزلوا على مصر كانوا 66 نفسًا دون النساء (تكوين 46 :25) ومن هنا بعدما مات يوسف وينتهي كتاب التكوين يكمل كتاب التوراة بقصة الخروج من مصر المتعجرفة الخبيثة لأني كلما أقرأ هذا السفر أجد تفاصيل مقيتة وعنصرية ولا بعدها عنصرية يلصقونها بك في هذا الكتاب المسمى التوراة...

هل يا الله أنت لك شعب؟

أتعلم يا الله أنه لو كان لك شعب ستكون حينها غير عادل حتى لو قالوا أنك كامل وعدلك مطلق لا يتعارض مع محبتك، فعفوًا هنا يا الله عندي تساؤل هو هل يوجد عدل في التفضيل؟ بالطبع لا أتعلم لماذا؟! لأن التفضيل لا يتحقق إلا من خلال التمييز والتمييز غير عادل...

هذا طبيعي جدًّا كيف أميز شخصًا عن شخص وأكون عادلًا؟

وأتذكر رد القس "سامي" بحق الامتياز... أي امتياز هذا يا الله وأنت

الذي قلت

"الجميع زاغوا وفسدوا وأعوزهم مجد الله"

هذا تناقض أم أنا بدأت أهذي؟! إذا الجميع زاغوا وفسدوا إذًا لا أحد يستحق أن يكون رغبتك المطلقة لأن كلهم سواسية في فعل الخطأ وماداموا كلهم خطاة إذًا لا يوجد حق الامتياز كما قال القس...

ومن هنا عقلي لم يقبل كلمة "شعبي" في التوراة...

إذًا هؤلاء أخذوا اسمك ونصبوا نفسهم حماة إيمانك... بأي حق لا أعلم مع العلم أنه لو كان بالفعل أنت اخترتهم كشعب فعفوًا أنا لن أعبدك لأنك اخترت شعبًا كفروا بك أكثر من كفر الملحدين بك... لكني بالطبع أعلم أنك الله الحلو الطيب الذي يصبر على هذا الذي أكتبه ويظل يسمعني بصمته الذي يقتلني...

احكم أنت على فلسفة التوراة في معاملتك لغير اليهود مع العلم أني أعترف باللا أدرية ما بين الصواب والخطأ... فلو كان ما سأقوله خطأ عرفني الصواب وإن كان ما سأكتبه صواب فلتعلن لي وتريح لي ذهني المقدد الذي بات ينجب الجنون من كثرة التفكير...

فعندما تكاثر اليهود في أرض مصر قام في هذا الوقت ملك على مصر خاف من تكاثرهم وهيمنتهم على بلاده والذي هو حقه كحاكم فقرر كما ذكر في سفر الخروج أن يذلهم ومن ثم ظهر "موسى" بعد حادثة "العُليقة" التي حسب كلام التوراة وعدته منها أن يسطوا على أرض تفيض لبنًا وعسلًا وهي أرض كنعان التي هي أرض فلسطين لمجرد أن الله اختار اليهود شعبًا دونًا عن سائر الأمم "الكلاب" كما كان يحلو لليهود تسميتهم

في التوراة...

ومن بعد كل هذا الذي حدث من ضربات عشر وصف فيها التوراة أنك كنت تقسي قلب فرعون كما في (خروج 3:7)

"ولكني أقسي قلب فرعون وأُكثر آياتي وعجائبي في أرض مصر"...

وهنا يا الله، كالعادة اجتاحتني الشكوك والعواصف الذهنية اجتياحًا... صريع في حمأة من غلاظة الفهم والانفصام اللا منطقي...

كيف يا الله تتحكم في إرادة إنسان وتتحكم في أفعاله ومن ثم تعاقبه على قساوة أنت ارتكبتها في حق ذاتك... بل ولم تكتفِ بهذا أنت أيضًا عاقبت شعبه وأرضه ما هذه الأسطورة يا الله...كيف تقسي قلب فرعون ومن ثم تحاكمه... أحقًّا أنت فعلت ذلك لمجرد أنك فضلت إسرائيل على المصريين... المصريون الذين كانوا عزة الشعوب في هذا الوقت وأنظفهم الذين اكتشفوا العلوم وبنوا ناطحات السحاب في الأزمنة السحيقة الذين طَببوا الطب وبدعوا علم الصيدلة وتفانوا في الاحترام... تفاضل عليهم الشعب المستبد لمجرد أن مزاجية "موسى" تكيفت بكتابة هذه القصة وأنت أعلم إذا كان هو الكاتب أم لا من الأساس...

يا الله هل أنت ظالم؟ هل أنت تتدخل في إرادة بشر بحكم سلطانك وقدرتك؟ الجواب في هذه الأسطورة هو نعم... أتعلم يا الله أني طول حياتي في الكنيسة كانوا يعلمونني أن اليهود هم الأخيار والمصريين هو عبدة الأوثان الأشرار...

بدون مبالغة يا الله أتذكر أنها كانت عمليات غسيل مخ مكثفة تحدث لنا في الكنيسة ونحن أطفال كانت تسمى مدراس الأحد وهي مستمرة

حتى الآن، ولا أنكر يا رب أني تعلمت مبادئ كثيرة جيدة هناك لكني عندما بلغت الثمانية عشر من عمري وبدأت أفكر فيما كان يقال لي طيلة هذا السنين وجدت كوارث حقيقية تحدث في حق الأطفال هناك وأولهم هذه الكارثة التي أتحدث عنها أنهم أقنعوني "أن الظلم... عدل وعدم المنطقية... شيء منطقي "لمجرد أني طفل أقنعوني أن شعب إسرائيل هو المظلوم وأن الله هو العنوان...

من أنت بحق السماء كي تستخدم البشر كلعبة شطرنج مثل فرعون في مركز الملك! وأين العدل في إرادة إنسان غير حرة؟ على أي أساس تعاقبه على شيء أنت تريده والأنكى أنك تنفذه وتتعدى على إرادة وحرية البشر التي على أساسها تعاقبنا...

بالله عليك يا الله...! كيف أثق فيك كإله أنك ليس أنت الذي تتدخل في إرادتي وتجعلني أفعل الشر لمجرد أنك تحب أخي الذي هو مثلي أكثر مني وأنا لم أفعل شيئًا؟

ما الذي يجعلني أثق أنك لن تتحكم في إرادتي وتعاقبني علي ذلك مثل ما فعلت مع فرعون...

أليس أنت يا الله الأمس واليوم والغد وإلى الأبد صفاتك ومبادئك ثابتة لا تتغير إذًا أين المنطقية والعدالة هنا... تقتل أبكار المصريين وتُبارك الإسرائليين باللفظ أنهم يسلبون المصريين (سفر الخروج لن تكتب للتوضيح فقط 4:22)؟!

أي إله يحث على السرقة هنا... ما هذا العته يا الله؟ ألمجرد أنهم قالوا لي أن هذا هو الصواب أصدق؟!

لا ولا وألف لا، لن أصدق يا الله أنك عندما تحب شخصًا تنصره وتقويه على أخيه الإنسان لأن هذا تفكير إنسان وليس تفكير إله وهذا الذي يشككني أن إله هذا التوراة هو ليس انت...

الإله العادل لا يفعل ذلك؛ لأنه العدل في ذاته هو التعادل والتوازن وليس التعدي على الإرادة والسرقة ومن ثم القتل دون وجه حق... وإن افترضنا أنك أحببت الإسرائليين كما يزعمون، أهذا معناه إبادة أبكار المصريين؟

إذًا ما هو سبب وجود الجحيم إن كنت ستعاقب الشرير في الدنيا، مع العلم يا الله أن الفراعنة كانوا كل البعد عن الشر ولكن وضح لي يا رب إذا كنت ستعاقب الشرير والبار في دُنيانا فما سبب وجود الأبدية سواء السعيدة أو التعيسة أليس جهنم لعذاب الأشرار صدقني يا الله وبدون مبالغة في يومي هذا كل ما أراه أن الأشرار هم المستمتعون والأخيار هم المعذبون..

رجاء يا الله ضع نفسك مكاني عندما يأتي هذا التساؤل إلى ذهني كيف تجعل عقاب شخصًا فَانيًا لم يخطئ سوى مدة وجيزة من الزمن لا تتعدى اللحظة في عمرك الأزلي بعقاب مدى الدهر؟!

أين العدل هنا، أهذا عدل أم إرهاب يا الله كي تجعلني أؤمن بك... فأحيانًا يا الله أشعر أن الأنبياء ما إلا أشخاص أقوياء الشكيمة فرضوا فلسفتهم على البشر كأنها أقوال الله...

نعم يا الله فانظر حولك المسيحيين ينظرون للنبي محمد هذه النظرة لأنهم لا يؤمنون به، والمسلمين ينظرون للبوذيين هذه النظرة لأنهم لا يؤمنون به، والبوذيين ينظرون للنبي كونفشيوس هذه النظرة لأنهم لا

يؤمنون به، الجميع ينظر نظرتي للأنبياء، لكني إن قلت هذا على الملأ حتمًا سأموت من غرقي في البصاق الذي سيطالني في ظرف دقيقة... فكل شخص يرى أنبياء الديانات الأخرى بصورة شكوكية والذي حدث لي الآن أني وصلت لمرحلة أنظر لكل الأنبياء بهذه الصورة من فجر التباين والاختلاف بين كل نبي وكل دين...

وبفضل صمتك المطلق تركت هذه المعضلة للإيمان كَحل ولكن لا أحد إذا خرج وتجرد من دائرة الدين سيعرف أين الحق لأن الجميع متشابهون في المظهر لكن الجوهر قتل المليارات على مر التاريخ فالكل يتفق على وجود الإله ولكن الكل يختلف على جوهره ومن هنا أصل النزاع...

هل الحق يقتل حتى وإن كان اسم وراية الإله؟!

هذا السؤال يقتلني مرتين في المرة، هل ما كان يفعله هؤلاء الإسرائليين في يوم من الأيام باسمك حق؟ دعني أوضح لك شيئًا يارب يحدث في أيامنا هذه، أتعلم يا رب أن الإسرائليين يستوطنون بلاد فلسطين ويحاربونهم منذ أيام موسى أي منذ أربعة آلاف عام لمجرد أن هؤلاء اللقطاء لديهم إيمان أن الله منذ خمسة آلاف عام وعد إبراهيم أن يعطي لنسله هذه الأرض ملكًا لهم...

أو أتعلم يا الله أن فلسطين أهلها الأصليين هم العرب يكافحون ويناضلون حتى اليوم لأجل أرضهم الشرعية حسب الميراث والأسبقية بعد الطوفان وأن بني إسرائيل حللوا لأنفسهم هذا بحجة أن الله غاضب على هؤلاء الفلسطينيين وذنبهم قد اكتمل هنا... هذا الذنب الذي من خمسة آلاف عام يحمل وزره مليارات الحوامل والأطفال والشيوخ

والأولاد والشباب والعذارى والزوجات حتى يومنا هذا بسبب هذيان هذه الأمة التي تفتخر أن لديها أعظم علماء وأطباء في العالم وهم حتى الآن يختذلون إلههم في هيكل أسفل مسجد...

أي ذنب هذا الذي تلصقه بأجيال وأجيال ثم أجيال ليس لها نهاية من هؤلاء الكفرة الذي كفروا بالإنسانية والكرامة وبدأوا شريعة الموت والاغتصاب... فالإسرائيليون ياربي هم أول شعب استخدم الإرهاب الديني لاستغلال الضعاف والسيطرة على الأراضي فهم لهم قرف وليس شرف الأولوية التاريخية في ذلك...

ويأتي في الأخير يقولون أن هذا حق إسرائيل في إقامة دولة في فلسطين... عن أي شعب يا أولاد العبث تتكلمون هنا... لا إنحياز مني لفلسطين لكن هنا التاريخ والحق وشريعة الإسرائليين نفسها تشهد أنهم مغتصبون... فانظر يا الله على الأصل معي إنهم استخدموا اسمك للغزو وللفتك بالذكور في شتى البلاد التي جاروا عليها وهم واهبون لأنفسهم تصريح التعدي على حدود فلسطين بحجة أنها أرض الموعد...

والعرب أتى الإسلام فأعطى القدس هيبة وقدسية وهنا صار البنزين يتراقص على خصر النار فأصبحت الحرب ليست حرب حق وأرض لكنها باتت حرب آلهة...

إله اليهود وعدهم بالهيكل في القدس والمسلمون لديهم المسجد الأقصى في القدس والناس تموت والأطفال تهرس والحوامل تبقر لأجل عيون الهيكل والمسجد وكأنهما أهم من الناس والبشر...

جاوبني يا الله من جُبل لأجل من؟

المسجد جُبل للإنسان لأجل عبادتك فيه أم الإنسان هو الذي جُبل لأجل المسجد حتى يعبده دونك؟

أليس الهياكل والكنائس والمساجد ما هي إلا حجارة من دونك أم هي مقدسات لا تمس؟ كم يؤلمني يا الله أن يقدس البشر الحجارة ويعبدها أكثر منك ويضحون بالإنسان في سبيلها...

قل لي يا الله ما الفرق بين الذين يموتون في سبيل مبنى مقدس وبين الذين يقدمون أولادهم قربًا وذبيحةً... اعلم يارب أن من سيرى كلامي هذا من البشر كان سيقذفني بلكمة ثم يقول يا كافر، أتشبه شهادة الله بعبادة الأوثان...

لكني الحق أقول لك يا الله أن عبدة الأوثان يعتبرون أولادهم شهداء أيضًا لكن إيمان الخلق هو من اختار الشهيد بالنسبة له لكن في كل الأحوال يا الله هل من يموت في سبيل مبانٍ ومعابد مقدسة يستحق أن يموت؟

بالله عليك جاوبني لا تصمت أنا أرى البشر يوميًّا رؤسهم مبتورة يلعبون بها الكرة ويشوون الأكباد البشرية ويلتقطون الصور وينشرونها بفجر... من هو المسؤول الحقيقي خلف هذا الدمار الذي يصيب شعوبنا؟

أصمتك هذا إن خرجت عليه في أيام مثل هذه كان بكل بساطة الكون كله سيتوحد لأنك يا الله إن قررت أن تذيع شريعتك مباشرة على التلفاز صدقني كل هذه الأمور ستحل لأن المشكلة في الأساس هي احتكار كل شعب لك... احتكروا الإله وكل قبيلة اعتنقت الحق وكل طائفة صححت الأخطاء وكل إنسان تائه وسط زخم مبشرينك...

فبكل بساطة يارب إن أتيت بثلاثة أشخاص واحد مسيحي والآخر مسلم والثالث يهودي وسألتهم من منكم الحق سيردون بدلوماسية "كلنا عبيد الله" لكن في قلوبهم اليهودي سيقول "نحن الأصل وهم من أزادوا وحرفوا وعندما سيأتي المخلص سنملك عليهم صدقًا"

أما المسيحي سيقول "مساكين هؤلاء الأشخاص لا يدرون أن الخلاص والسماء والأبدية السعيدة في شخص يسوع المسيح الذي هو المخلص الذي ليس بعده كمال" أما المسلم سيقول "الحمد لله رب العالمين أنا الوحيد الذي أومن بالثلاثة لذلك أنا الصواب"

أما الحقيقة التي يهربون منها بحلو الكلام هي أن الكل بالنسبة للكل كافر...

يا الله إن كنت تشعر بي فأجبني وإن لم تجاوبني إذًا أنا سأجيب نفسي وأرحمني من لا مبالاتك...

10

ختم رحيم كلامه وكمية من الكآبة تحوم حول وجهه بشراسة لم تُهدئ نار دواخله وهيجان ذهنه لكنه بالكتابة سيطرعليها وخاطب الله بصورة لائقة كما يرى...

نال منه صداع رهيب... كانت تنبض شرايين صدغه ويجز على أسنانه حتى شعر بالألم في فكيه وباتت رؤيته مشوشة وأفكاره كأنها تنسحب من التعب ثم تهجم في صورة خيالات وصور لا يفهمها...

أفكاره حينها كانت تشبه قناة تلفزيونية إرسالها مشوش لا يوجد من مشاهدتها إلا التشويش والعبث والصور المبعثرة... فقام من على مكتبه ووضع أقلامه وأوراقه داخل الدرج بعناية كأن هذا الورق فيه حياته وهو مغمض عينيه نصف غمضة... وراح يتخبط حتى وصل إلى السرير الذي لم يمر على وجوده فوقه سوى لحظات حتى بدأ يشعر أنه سيسقط منه... فيرتجف ويذعر ويحرك يده حركة لا إرادية لأعلى ثم يعود للنوم مرة أخرى...

حدث ذلك مرارًا وتكرارًا حتى فجأة وجد نفسه في سرير آخر ينام

في حضن "المسيح" الذي كان يراه في أيقونة الكنيسة بصورته الملائكية وشعره الطويل ولحيته المهذبة...

كان رحيم يشعر بصفاء وأمان وراحة تفوق الأوصاف وكأنه شاب ربح مليون دولار بعدما كان متواه الزرائب وكان المسيح صبوحًا وواضحًا غير مشوش وشكله واضح إنسان طبيعي لكن في حضنه شعور ما فوق الطبيعي من طمأنينة وسلام غامر ينضح على رحيم الذي غمس رأسه في حضن الرجل كاليتيم الذي ذاق الحرمان من الحنان الأبوي حتى وجد الأب الكامل ثم دار الحوار بينهم أولًا في همس كالعشاق بدأ من المسيح الذي سأله

- أتحبني؟

فأجاب رحيم بالفصحى

- لا أعلم

صمت برهة ثم أردف مرة أخرى

- أنا لا أعلم ماذا يعني حب الإله

فسكت وهو يضم نفسه أكثر على جسد المسيح منتظرًا الإفادة...

فحرك المسيح يده على شعر رحيم وأخذ يدلك له فروة رأسه وهو يردف...

- "الحب ماذا يعني؟! أتعلم أني أحترمك أيها الفتى لأنك صادق... غير مبالغ ولا أفَّاق فكم من شعوب يزعمون أنهم يسجدون لله ولكنهم في الحقيقة منافقون يستسهلون الأعمال والصلوات لسد فم الله وكأنهم

يقولون نحن نفعل ما فرض علينا نحوك فدعنا الآن نكمل حيواتنا وكم كتاب ورواية وقصة نسجت عن الحب... الكل يعظ عن الحب والجميع يبحث عن الحب حتى "بطرس" تلميذي الجسور عندما قال لي أنه سيأتي معي إلى مكان مهما كانت العواقب... أنكرني بعدها بساعات...

أتعلم يا رحيم عندما كنت على الأرض وعظت عن الحب أيضًا الجميع يسعى لهذا الشيء غير المفهوم أتتصور أني من كثرة وغمرة هذا الشعور أتيت من السماء كي فقط أُظهره... أظهر الحب إذ لا أحد يفهمه ومع ذلك الكل يتكلم عنه تبًّا لكم أيها البشر خيبتم ظني كل ما أقدر أن أنصحك به يا رحيم هو أن الحب فعل... افعل الحب ياولدي..".

حينها هبت أصوات أجراس للكنائس ونواقيص فتمايل المسيح وتضجر وأخذ يتمتم ويهز رأسه بعدم رضى فوجد رحيم نفسه مع المسيح في ظل حرب يقفان هما الاثنان في وسطها حرب ضروس كانوا فرسانها على منابر في أزياء مختلفة لكنها متشابهة الكل يحدف الكل بكتاب والمسيح يمسك يد رحيم ويتألم ويظهر الألم بَيِنًا على قسمات وجهه وهو في منتصف المعركة فتعلوا وتزداد الضجة والألم يزداد ويبدأ من يد رحيم الممسكة بالمسيح... الاثنان اقتربا من الألم والفرسان كل منهم يهتف بالنصر لكن من المنتصر لا أحد يعلم الكل يحدف الآخر ويرجم الآخر بنفس الكتاب وينتشي من اللذة عند إصابة الآخر...

هنا سئم المسيح ووضع إبهامه على رأس رحيم فزاد الألم حتى الموت... تفكك رحيم إلى كيانات أربعة يدور في دوائر من العدم بإدراك مفقود كالشعور بالهبوط الحاد... شلل كلي وإدراك مهتز ومشوش داخل الدوامة التي سحبتهم إلى مكان حيث بدأ كل شيء وكل إنسان... إلى "الجنة"

سقط الأربعة يوسف ورحيم وقصي وسارة على أرض قحلة عجفاء مشققة بأخاديد لا توجد حولها لا نهاد ولا نجاد... صهد الشمس يلفحهم بحرارة تجفف اللعاب داخل الأفواه... الأرض جرداء لكن أخاديدها تدل على أنها كانت نهرًا وقد جف حديثًا... السراب هو المتحكم في كل الجهات... تشعر أن البحار والمحيط حولك ولكنها ليست إلا انعكاسات حرارية... الأربعة ما بين مذهول وحيران ماذا يفعلون بعد كل هذه النكسات التي تتهابط عليهم وتتثاقل دون رحمة... أمن ظلام وبرد إلى عجف وجفاف؟... وسط سراب ولا ملاذ إلا الموت للتخلص من هذا السقم... ذهب قصي منفردًا وهو منحني لا يقوى على فرد ظهره وكذا حالهم جميعًا الذين نظروا إليه وهو يشير إلى نقطة بعيدة وسط السراب الساخن الذي يُميتهم عطشًا...

فساروا خلفه وهو يجرجر في قدميه بسرعة حتى يصل إلى هذا الشيء الذي بدأ يتضح تدريجيًّا على أنه شيء يتظللون بظله... فأخذوا يسرعون نحوها حتى بانت عن قرب أنها خيمة...

فارتدت الأرواح داخلهم وهم يقتربون نحو هذه الخيمة تدريجيًّا حتى طالوا ظلها وحين ذلك سمعوا صوت تأوه فتاة كأنها تتألم بصوت مكتوم... فبدأ الأربعة يضعون آذانهم على قماش الخيمة...

بدأ الصوت يتضح أكثر صوت تصفيق جلد على جلد مصحوب بـ "آها" أنثوية مع لُهاث ذكوري عالٍ وخلال ذلك سمعوا صوتًا جهوريًّا يحفز هذه الأصوات

"ازرع يا بني، لا تكف حتى تقذف بذورك"

وصوت أنثوي بالغ يشدوا بنغم...

"افتحي أرضك يا بُنيتي حتى يرويها... فَتلدي الحياة والمَعنى"

الأصوات كانت واضحة بالنسبة للأربعة... يوسف ورحيم وقصي وسارة... حتى بدأت الأخيرة تبحث عن فتحة كي ترى ماذا يحدث... إنها الأنثى... فدارت حول الخيمة وهي لا تزال تسمع لهاثًا ذكوريًّا وآهة أنثوية حتى وجدت في زوايا الخيمة فتحة... فتجمع الأربعة متهافتين رؤوسهم فوق بعض ينظرون... ليجدوا رجلًا كبيرًا لكنه ليس عجوزًا وأنثى ناضجة لكنها لا تزال محتفظة بغضاضة جسدها مكسيان بورق الشجر وأمامهما شاب يوطئ شابة أسفله ينحر نصفها السفلي بنصفه الأسفل...

فعندما رأى الأربعة هذه الخيمة من الداخل في صوت واحد جميعًا بتعجب واندهاش كأن الفكرة وصفت ما يرونه دون أن يعلموا "آدم"...

فسمعوهم الذين في الخيمة وهم ينظرون برؤوسهم التي كانت تطل في أحد ثغرات الخيمة فوقع نظرهم جميعًا في عين "آدم" التي دون أن يدروا أخذت تقترب منهم ومن عيونهم حتى بدا كل ما ينظرون إليه هو عين...

نفس الرؤية يراها الأربعة دون اختلاف عين آدم سوادها مُضنٍ... احتوتهم هذه العين بالظلام جميعًا ثم نقلتهم ليجدوا أنفسهم مكبلين، مُساقين وَسَط موكب... الأربعة يوسف في البداية ومن خلفه رَحيم ثم يأتي قُصي ومعه سارة...

البشر حولهم كثيرون يزغردون ويتهللون أشياخ وعجائز، أطفال وحوامل، فتيات وفتية، شعب حولهم يثور من الفرحة ويبتهل بالاغتنام...

أصابتهم الحيرة والخوف هُم الأربعة مِن هذا الشعب الذي يمسك بالأبواق ويَنفر والفتيات اللاتي تمسكن بالدفوف وتصنع الإيقاعات الراقصة والعجائز بخفة ومرح يركضون كأنهم خيال مآتة خشبي... كلهم يهتفون...

"ذبيحة الوحش أتت أيها القادر... اعمى عنا عينك بفم فاطر... فقانونك فعلناه بفؤاد صابر"...

كانوا يَطِربون هذه الأبيات بنبرة فرحة كأنهم أزاحوا من عليهم اللعنة في وقت كانت فيه الشمس في كبد السماء والأربعة يمشون مسوقين في حارة بين بيوت على الناصيتين والزينة بين البيوت تبعث بالفرحة بين الأجواء... لكن الحيرة ما زالت مستمرة في قلوب الأربعة... ماذا يحدث؟ أين نحن؟ من نحن؟ لا أحد يعلم... كل هذا كان مجهولًا إلى أن وصلوا لنهاية الحارة فتوقفوا أمام معبد مَهيب... يتقدم مدخله نافورة غَذيمة عليها تمثال رجل يمسك كتاب بيده اليسرى وباليمنى يشير ناحية الحارة المُمتلئة بالجمهور فيظهر التمثال وكأنه يشير إلى الجمهور...

ويظهر من خلف هذه النافورة وأمام البيت الذي تنتهي عنده الحارة رجل ملتحٍ ويلبس رداءً أحمر اللون ولكن ليس الأحمر لونه الطبيعي فهذا الأحمر دمٌ طمس جلبابه الذي ليس له لون غير الدم...

كان هذا الرجل شكله بشع بلحيته الكثة وملامحه الجهنمية وحاجبيه الثقيلين وكأنه شيطان يقف عند باب هذا البيت والأربعة وسط الناس يتهافتون ويهتفون، يتصايحون بصوت جماهيري عظيم...

يتقدم هذا الرجل الذي كانوا يدعونه "الوسيط" إلى النافورة التي تفصل بينهم وبينه حتى يقف أمام التمثال الذي يتوسط النافورة ثم يشير

بيده ناحية الجماهير بنفس إشارة التمثال... فيصمت الكل ويسود الهدوء هؤلاء البشر كأنهم تماثيل أخذوا الأمر بالتسمر والسمع...

فقط الأربعة مُكبلين في المقدمة أمام الوسيط الذي كان ينظر إليهم نظرة جامدة لا تحمل أي تعبيرات أو معانٍ مجردة من المشاعر ومن بعدها نظر إلى الشعب وهتف وهو يمد كلتا يديه إلى الأعلى وقال بصوت عظيم

"اسجدوا للقواعد"

فسجد جميع الشعب فورًا ممرغين جباههم في التراب ما عدا

الأربعة الذين سمعوا صوت عظيم يخرج من بوق أعلى الباب الذي كان يقف عنده الوسيط في البداية حينها أردف الوسيط أثناء خروج نفير البوق...

"اسمعوا صوت حامينا وناصرنا مُقيدنا ومُسيرنا حتى لا نهلك في رجس بقية العوام والشعوب الذين لا يسيرون على القاعدة ولا يهابون الوحش"...

فانسدح الجميع على الأرض وهم ينامون على بطونهم ووجوههم على الأرض حينها أكمل...

"أنا الوسيط الذي يقربكم من الوحش الذي لا تراه عين... يكفيكم سماع زئيره الذي يرهب الجيوش ونعيره السماوي الذي يسقطها ويزلزل الأراضي حتى يجمعها جبالًا وآكامًا وبيوتًا ورمالًا... أنا الوسيط الذي بدونه كان الوحش سيلتهمكم في أول تقدمه... ميزني وقد امتزت باختياره... لا حقًّا فيا بل نعمةً منه... لذلك اسمعوا واعوا كلام "القاعدة" التي فيها رحمتكم وبها قضاؤكم وحُكمكم،

واعلموا جيدًا أن من يتساءل أو من تسول له نفسه أن يشك أو من يفكر أن يخرج عن "القاعدة" سيكون مصيره مقابلة الوحش وجهًا لوجه حتى يأخذ العدل مجراه... العدل الذي أُنزل لنا فَقَط ولا أحد من بقية الشعوب مقتنعين بهذا لأننا الأمة الأصلح والأجمل والأقرب إلى الوحش لذلك قد قررنا نحن "الوسيط" أن نحيل هؤلاء الأربعة إلى مقابلة الوحش لتأخذ العدالة مجراها وتفعلوا أنتم يا شعبنا، ما يحلو لكم ولكن تحت سلطان وأمر القواعد لأن الذي سيخرج عن القواعد التي سنها الوحش وأنا كتبتها لكم مصيره هو تحدي الوحش بذاته... والحق أقول لكم أن الموت أرحم من تحدي الوحش ذاته؛ لأنه وحشنا هو الحق وعقابه أيضًا سيكون حقًّا نتيجة تحديكم إياه... الآن أشكركم على تفانيكم وخوفكم ورعبكم الذي جعلكم تجلبون هؤلاء الأربعة الآن يأخذون حقهم كونهم شذوا عن "القاعدة" واختلفوا عنا وعن سننا وقوانينا... وأخيرًا امضوا إلى بيوتكم ولتضعوا في قلوبكم كل حين مخافة القواعد كي لا تزعجوا الوحش"..

بعدما أنهى الوسيط هذه الكلمة الموجهة لهؤلاء الناس، أمر أربعة حراس كانوا يقفون خلفه عند مدخل باب المعبد الذي كان يسد هذه الحارة... فأتى الحراس وكل واحد منهم أمسك فردًا من الأربعة وأمرهم الوسيط أن يذهبوا بهم إلى داخل المعبد لمواجهة الوحش...

فسمع الحراس الأمر وانتظروا حتى ينزل الوسيط من مكانه العالي على النافورة حتى يتقدمهم هو إلى الداخل...

بوابه عالية يعلوها باب حديدي مُقلم برماح رأسها للأسفل يرفع عند الدخول ويُسفل عند الإغلاق... جدران حجرية تشبه جدران

الكهوف... عندما دخل الأربعة لاحظوا عتمة المكان وبرودته كأنهم في خندق حجري... كان يتقدمهم الوسيط حاملًا شعلة نارية على وتد ينير بها الممر الذي كانوا يدخلونه بعد مرورهم من البوابة...

كان الممر طويلًا وشديد العتمة يمينهم ويسارهم زنازين حديدية بها بشر مخيفون يخرجون أيديهم من المساحة ما بين حديد قضبان السجن وهم يزومون بِسَخط ناحية "الوسيط" الذي لا يعيرهم أي اهتمام...

الأربعة كان الخوف يتلجج في قلوبهم كلما مشوا في هذا الممر إذ كان يأتيهم صوت صراخ ونحيب أنثوي كلما اقتربوا أكثر من نهاية الممر التي كانت منيرة تدل على أن الممر مفتوح على الهواء الطلق... إذا بهم يقتربون من إنهاء ممر السجون حتى يتسع الممر في صورة انتفاخ على اليمين واليسار وسع من بعد الممر الضيق... والظلام أيضًا هو الزي الرسمي لهذا المكان لا يوجد أي مصادر للإضاءة إلا الشعلة التي في يد "الوسيط" الذي يتقدم (يوسف ورحيم وقصي وسارة) والأربعة حراس الذين يحرسونهم من الخلف...

خرجوا كلهم من هذا الممر إلى الغرفة التالية التي كانت أوسع وأرحب لكنها أكثر رعبًا حيث كانت عبارة عن غرفة تعذيب... رائحة الدم فيها مقيتة كأنها رائحة أرواح بشر تشوي على لهب الجحيم...

مكان مُقزز وموجع مع لهب الشعلة الذي كان يمسكها ذلك المدعو وسيط... مكان الألم يرسم لوحات على جدرانه بكل فجور وعدم حياء كأن النفوس كانت ريشة هذا الألم حتى يأخذ من الدم مادة يلطخ بها هذا المكان المشؤوم...

كانت الرعدة تداعب قلوب الأربعة برهبة وخيال مؤلم عن مصير

محتوم في مكان لا عنوان له غير "إما الألم إما الموت" فكم من قلوب ماتت وضمائر زنت حتى يفعل الإنسان في أخيه الإنسان هذه الزفارة الأخلاقية...

ما هو تفكير المعاقِب عندما يؤلم المعاقَب... هل الجُرم يقابل بِجُرم؟

أهذه الدرجة تطور العِقاب في بعض الحالات إلى أن أصبح العقاب نفسه جُرم...

فالأربعة كانوا يرون أنثى... فتاة ملطخة بالدم في جميع وجهها المتورم والمزرق نتيجة ضرب مبرح تتوسد كتف شاب ملقى على حائط بجانبها، حاله من حالها وجهه مشوه جراء تعذيب همجي بربري أفقده آدمية وجهه وبجانبهم جلاد ضخم عارٍ تمامًا من أعلى لا يرتدي إلا سروالًا يخفي عورته يوجه كلامه للوسيط وهو يقول...

"هؤلاء الاثنان أمسكهم الشعب يتلاطفان في مكان خالٍ دون عقد نكاح ورقي"

حينها جمع الشاب المضروب هواء صدره حتى خرج بكلامه موجهًا إياه للجلاد والوسيط

"العهد أشرف من العقد أيها الملاعين"

قال هذا الكلام فركله الجلاد بقدمه على فمه مباشرةً بقوة غشماء أسفرت عن كسر سنة بصقها هذا الشاب مصحوبة بدم مُجلط كأنه يخرج أحشائه من الألم وهو يومئ برأسه ناحية الأرض يلهث من الألم والوجع حتى اقترب منه الوسيط بتؤدة ونور الشعلة يقترب من هذا الشاب المقتول ألمًا فتظهر أكثر وأكثر ملامح وجهه المدمرة جراء التعذيب

فينحني الوسيط بشكله الجهوم نحو هذا الشاب وفتاته التي تتأبطه محتمية في جسده المقدد ووجه كلامه بضحكة مستهزئة

"هه متعلم؟! العهد أشرف من العقد!!... دعني أقول لك شيئًا أيها الشاب... العهد ليس أشرف من العقد بل العهد يتحقق بالعقد يخرج للنور ويُقنن ويشهد له الناس أنه عهد...

أما أنت باختصار فأنت حيوان تريد الحرية غير المُقننة كي تفعل وتقضي وطرك أينما تشاء مع من تشاء دون قوانين...

تغتصب إرادة فتاة غضة صغيرة في السن فتنتهز فرصة ثوران جسدها وتسحر عقلها بكلام جُل صرحاته هو كذب حتى تفتك بعقلها وتتحكم في شعورها ومن ثم تمتلك جسدها، تداعبه فتسلبها ما تبقى من إرادة دون وعي فتفتح لك أسارير المتعة في نهديها فلن تشبع من جزء فتضع يدك على الكل فتقاومك هي بدلال حتى تسود عليها برجولتك وتسلبها ما تبقى لها من شرف من خلاله تذلها بفضحها فتسير دمية مسلوبة الإرادة والجسد بين يدك...

تسرق إنسانة وتُذللها لأغراضك الحيوانية دون أن يدري أحد حتى هي نفسها... ياولدي أنا الوسيط أنا "بابا يَلا" ليس ولد مثلك يأتي بجملة مسجوعة يسحر بها عقلي ومن هنا أسألك هل فهمت قيمة العقد أيها الشاب الهمام؟ جاوب..".

الشاب ينظر للأرض حتى رفع عينيه دون أن يحرك رقبته أو رأسه نحو هذا الشيخ المدعو "وسيط" وقال له بصوت مُرهق لكنه يحمل الغِل والانتقام...

"أتعلم أيها الشيخ الملعون أنك تهابني أكثر من الوحش ليس لأني قوي أو أتحداك بل لأن وجودي يهددك لأنك تعلم أنني متحرر منك ومن وحشك الوهمي فأنت الآن قد نجحت في ما تفعله طوال حياتك وهو تشويه الحقائق والإيحاء...

نعم أنا قُلت لك "إن العهد أشرف من العقد" فشوهتني ورسمت صورة غير حقيقية عني وعن دواخلي لك ولغيرك لكي تصدقوها...

أما أنا أقول لك أنه في كل كلامك السابق أنت لم تفعل شيئًا غير الإيحاء وزرع فكرة غير موجودة كي توسم بها ضميرك في أداء ظلمي... فقل لي أيها الوسيط حتى وإن كنت صاحب عقد أهذا يمنعني من فعل ما قلت أني فعلته؟ لو كنت سيئًا مثلما وصفتني حتى لو كنت تزوجتها بعقد سأذهب لغيرها وأفعل معها نفس الفعل الزاني

هل العلاقة عمادها ورقة تحمي الزوجة من أن تخون زوجها؟ أنا وأنت نعلم أن هذا لا يحدث...

لكن الحقيقة أنك أنت تريد العقد حتى تسيطر على العهد بطريقتك وسلطانك فكم من أزواج بالعقد يزنون بالعهد... كم زوج يتخيل امرأة غير التي يضاجعها، وكم امرأة تُغلق عينيها لئلا ترى نكبتها واغتصابها باسم العقد، وكم من زوج فعل ما قُلته عني ولكن الفرق أن من بذل مجهودًا في إقناع الفتاة هي أمها وأبوها لقبولهم شخص يناسبهم لا يناسبها...

أنتم تحكمون على الورقة بالحِل وعلى العِشق بالعهر... أنت تسمي الحب والغزل حرامًا وتتجشأ على شعبك بتشويه صورة الهيام والبراءة بكونهم يؤدون إلى الرذيلة...

ما هي الرذيلة أيها الأحمق، أصار عناق الحب رذيلة وجماع العقد دون معرفة المعقودين لبعضهم البعض فضيلة... هه اضحك بهذا الكلام على غيري فمن البدء الله جمعهم دون عقد وهذا العقد صنعتك أنت يامتسلط؛ حتى تتجبر على الإناث والشباب بسوط الشريعة...

أنت قُلت أنني أثرت عليها برجولتي وهذا ما تحتاجه هي فعلًا كأنثى أما هم فيؤثرون عليها بالغصب والإغراء المادي وتشويه صورة العشق بأنه لابد أن يأتي يوم ويطفأ ولا تقول لي أني كاذب أيها الكاذب؛ لأن هذا يحدث في اليوم مرات ومرات...

أتعلم لماذا مجتمعنا غبي لأن قاعدة المجتمع والعلاقات محتقرة بسننك وفتاويك...

لا تترك البشر كل منهم يستفتي قلبه وربه لأنك تعلم جيدًا أنك حينها ستفقد سيطرتك كوسيط ومتحكم في العقول وتكون مجرد رجل يؤدي وظيفة أيها الوسيط...

العهد يُكتب على القلوب لذلك سواء عقد أو لا عقد فهو سارٍ مادام القلب خفاق، فهمت يا شيخ ماذا أقصد بأن العهد أشرف من العقد..".

سمع الوسيط كلام الشاب ثم قام من بعد انحناءة نحو الشاب ومرت فترة صمت وهو ينظر لهم حتى تحولت عيناه ناحية الجلاد الذي يقف خلفهم بالمرصاد ينتظر أمر الوسيط الذي قال له...

"خذ الفتاة جَرِسها في الشوارع فالشعب يعتبر الجرسة اكتشاف وبعد ذلك هم

سيقتلونها دون أن نرهق الوحش أو نزعجه"

حينها زاد نشيج الفتاة في خوف رهيب وهي تصرخ في رعب

"لا لا، جرسة لا، دعوني أقابل الوحش، جُرسة لا، أميتوني... حرام عليكم، أميتوني الآن، جرسة لا..".

ساد الارتباك بسبب صوتها العالي فذهب نحوها الجلاد وهي تمسك في يد الشاب الذي لم يشأ أن يفلتها من يده فضرب الجلادَ في بطنه بقوة واهنة فلم تصب الجلاد الضربة فرد في انتقام على الشاب بلكمة من قبضته هائلة الحجم فأرداه صريعًا ممسكًا يده في يد فتاته فاقد الوعي متورم وجهه مُخان من جسده الذي تركه ضعيفًا... أخذ الجلاد الفتاة وذهب بها إلى طريق الرجوع من حيث أتى يوسف ورحيم وقصي وسارة...

تكلم الوسيط إلى أحد الحراس الذين كانوا يحرسون الأربعة وقال له...

"أنت يا حارس احضر هذا الشاب فهذا لابد أن يقابل الوحش"...

فجاء الحارس ناحية الشاب أمسك بقدمه وبدأ يجره ناحية مخرج ضيق كضيق الممر الأول فالغرفة كانت كأنها انتفاخ وسط أنبوبة شعرية، ممر قبلها وممر بعدها، كلاهما ضيقان لكنها هي في وسطهم وسيعة...

أخرج الثلاثة حراس الآخرين سيوفهم من أغمدتها لكونهم ثلاثة حراس على أربعة مأسورين"

والحارس الرابع يسحل الشاب... أمر الوسيط الحراس جميعًا أن يسوقوا المأسورين

خلفه في الممر الضيق الذي كان في آخره ضوء يضع نهاية للظلمة التي كانت تغشاهم... فطول وتعرجات الممر قتل أي محاولة لوصول الضوء كاملًا ولكن كما المنارة في وسط ظلام البحور تظهر هكذا ضوء الممرات...

أخذ الحراس ينخسون الأربعة بالسيوف حتى يتحركوا خلف الوسيط حتى سأل رحيم...

"هو إحنا هنا ليه؟"

فنظر له الوسيط للخلف بعدما هم للتحرك ونظر للرحيم نظرة تعجب واستنكار حتى أجاب بكلمتين: "لقد شذذتم"

كأنه يقول له ما هذا السؤال الغبي أيها الغبي، حينها بدأ يفيق الشاب المسحول خلفهم والحارس يعاني في جره وسحله فتجلط ظهره وشعر بالاهتراء مع عودة إدراكه...

فكان يُفطم على الألم من لا وعي إلى وعي لا يشعر إلا بالاحتراق الناتج من الماء الذي ينزل من جدران الممر الحجري ممزوجًا بالأملاح التي تختلط بالتراب وجلده...

حتى وصلوا أخيرًا إلى النهاية... المرحلة النهائية... مقابلة الوحش... التي طالما أراد أن يقابله هذا الشاب حتى يتأكد من وجوده

فإن كان كما صوره الوسيط فهو لن يندم على عصيان قاعدته وإن كان ليس كما صوره فهو سيكون مرتاحًا إذ سينتهي الألم دون رجعة بانتهاء حياته...

عند هذا الوقت حدث شيء غريب جعل الوسيط يرتبك فالجدران

صارت تهتز مع الأرض مع حصى كان يتناثر عليهم من أعلى والماء يخرج من الشقوق بصورة أغزر مع رائحة قاتمة تحبس الأنفاس أخذت تنتشر والاهتزاز يزداد أصبح عبارة عن زلزال يُفَجِج الجدران فَيَبِج الماء في أجسادهم والحصى أصبح حجارة تزفهم في ألم...

فالجميع يتألم من ضرب وهدر الحجارة على أجسادهم... الحراس يصرخون... تلال من الحجارة قيدتهم...

الجميع يرجم ويتألم نفس الألم، الأربعة كيانات صارت واحدًا من جديد، النور ينقشع والظلام يسود...

دوائر ودوامات وماء وحجارة وصراخ وعويل سرعة مهولة تحيط بهذا الكيان الموحد...

عاصفة جنونية من المادة المحاطة باللامادة والعنف الذي يصيب الرؤية للأشياء...

أصبح يوسف ورحيم وقصي وسارة من جديد عبارة عن مزيج من الأشخاص المترابطين لكن غير مختلطين... لكل منهم شخصه وتفرده لكنه ممزوج مع الآخر ليكون الأربعة أقانيم إدراك واحد مختلط من أربعة أشخاص سكنوا ذكريات قصي...

بدأت الرؤية تتضح تدريجيًّا والكيانات الأربعة موحدة في إدراك قصي الذي بدا يتلاحم تدريجيًّا مع جسده الثابت في صورة مجسمة لحياة أو ذكرى حية...

في الذكريات... ترى نفسك فيها بكامل تفاصيلك وعندما تدرك أنك تتذكر... تتلاشى التفاصيل ويستتب العقل ناحية الواقع والمحيط ولكن

هنا قصي أقرب إلى الحلم من ذكرى فهو يرى ويشعر من خارج نفسه كأنه يسكن جسده... تشاهده نفسه مثل الميت الحاضر لجنازته ودفنه...

لكن "قصي" يرى نفسه وجسده حيين لا يشعران به ولكنه يشعر بالحضرة الذاتية التي تربطه بهذا الجسد الذي يخصه... جذبه هذا الجسد كأنما روح هلامية ذهبت في رحلة نحو اللامادة ثم رجعت إلى متواها... استراح إدراك قصي في جسد قصي حتى بدأت الحركة... كان قصي نائمًا على سريره ذي الألواح الخشبية مثل التي يستخدمونها في البندر وليست كالذي في غرفة والده النحاسي الطراز...

فحين كانوا يفاتحونه في زواجه... وأراد أن يتهرب منهم شرط عليهم أن يأتوا له بغرفة نوم إفرنجي وهذا كان بمثابة شرطًا تعجيزيًّا في تلكم الأيام كخلاف لسلو البلد والقرية كما كان جده يقول

"كيه يعني أديب أودة أفرندي خاطر يدوز... ياخي عن أمه ما ادوز بن الوصخ"

كان جده يكن له عداوة من أيام الولادة فالجد كان يؤمن أن يوم 13 أو رقم 13 هو رقم النحس وهذا هو يوم ولادة قصي... فكان رد فعل الجد وسط فرحة البيت وابنه بالمولود الجديد... حفيده.. رد فعل عدائي تجاه المولود وكان يطلق عليه حينما يناديه في الصغر

"خد ياد يانحس روح هات السبرتاية"

فأعز الولد ولد الولد، أما في حالة "قصي" لكل قاعدة شواذ... بجواره على السرير الخشبي كانت تنام سعدية هذه الفتاة التي لا تتعدى الثمانية عشر لكنها تمتلك جسدًا كالغوازي حسب المثل الريفي "فرعة ومرعة

وطرية"... نهداها بارزان بشدة واستقامة، وأردافها متناسقة الاستدارة كثمرتي بطيخ... عيناها عسليتان لا تمتازان بشيء عدا البلاهة الريفية... شعر كستنائي طويل تضفره ضفيرتان... وجه صبوح بابتسامة بلهاء طوال الوقت تنم عن طيبة ساذجة...

اختارها والدا قصي رأفة بحاله لأنه لم يكن لها أصل ولا فصل... وهذا مناسب جدًّا لأي عائلة أن تأتي بفتاة ليس لها أي عائلة أو أقرباء... فقط صادفوها في موسم حصاد القطن في أحد الحقول أعجبهم جسدها فسألوا القائم على بنات القطف فأخبرهم أنها فتاة ليس لها مأوى جاءت من حيث لا يدري أحد إلى قريتهم وهي صغيرة في سن السبع سنوات تقريبًا فأخذها عم جابر الذي قارب السبعين آواها مع أحفاده وعندما شبت تركت دار عم جابر ولا أحد يعلم السبب وباتت تنام وتأكل وتشرب محتمية بالمسجد فأخذها في يوم من الأيام جد قصي معه إلى دارهم وعرفها على أهل البيت وقال لها

"انتي هتدوزي ولد ولدي أنت اسمك إيه يابه؟"

قالت في خجل ممزوج بخوف وعدم ارتياح "سعدية" فنادى الجد أم قصي وقال لها

"غوريها وسبحيها... دهزيها عشان الدخلة"...

هذه الدخلة التي لن ينساها قصي طالما كان حيًّا...

كان قصي وسعدية على هذا السرير الخشبي... هي تضع يدها على صدره وفخذها على فخذه تتأبطه وكأنه وسادة معشوقة... وهو يده خلف رأسه والأخرى تتوسدها رأس سعدية التي تقضي في نوم عميق لا

يخلو من بعض الشخير المتقطع الذي يستفز قصي فيضحك وهو يحدث نفسه

"يخرب بيت فقرك ياسعدية، متجوز جاموسة"

يفكر في "خالد" الذي بقى على مجيئه ساعتان في القطار بعد طول غياب عن "قصي" امتد لسنة من الزمان منذ آخر زيارة له إلى نجع السلايمة بعدما كان يأتي ليزور أمه التي هي خالة قصي...

قصي وخالد قصة عشق ملحمية... أنداد... من الابتدائية حتى تخرجا في كلية الآداب قسم الفلسفة... استلم قصي وظيفته كمدرس فلسفة في البندر أما خالد فضل أن يذهب بعيدًا حتى لا يحتك بهؤلاء القبليين كما كان هما الاثنان يدعون شعب نجعهم...

أُم قصي هي توأم أُم خالد... تزوجا في نفس الوقت تقريبًا إلا أن قصي ولد قبل خالد بشهور قليلة وكأن القدر يرسم لوحة بهذين التوأم غير المتماثل...

فرضع كل واحد منهما من أربعة نهود لِأُمين... تربيا في نفس البيئة حيث كانت المسافة الفاصلة بين البيتين هي بيت واحد... أكلا سويًّا وساعدا أمهما في خبيز الأرغفة وتحويل المقارص وجمع الخوص الذي يوضع أسفل صاج الفرن البلدي هرمية الشكل المصنوعة من الطين والطوب اللبن... كان الاثنان لا يفترقان حتى أثناء النوم فالأمهات نفس الشكل والبيوت في نفس النطاق والاهتمام واحد...

ففي البيت الواحد يسكن الخال والعم والجد وأخو الجد والجميع أقارب والأكل للكل... الإناث متعاونات في كل شيء... فخبيز ثلاثة

بيوت من الممكن أن يكون في فرن واحد مقسم على ثلاث نساء... واحدة تعجن والأخرى تقطع على المقارص والأخيرة تنتقل للفرن.

لا يفعلون إلا الكلام أثناء قضاءهم مسئولياتهم وجل حوارت نساء الريف عن ليلاتهن الحمراء مع أزواجهن السود من لفح صهد الحقول... ومن حملت... ومن ولدت ومن ستتزوج... ملخص اهتمامات نساء الريف إما عن الجنس أو الدورة الشهرية أو الولادة وإما مسك سيرة أحدهم ونتف ريشها...

فمسك سيرة الآخرين هي المُسَكِّن اللذيذ للحياة الخاوية عند نساء الريف، فلا تعليم ولا خروج ولا علاقات وأعلى طموحاتهن هو الخروج للبندر حتى تشتري "هدوم العيد" التي تتلخص في قمصان النوم الحمراء الستان التي يكسوها الترتر من جميع النواحي حتى تشعر بأنوثتها في يوم تعرف جيدًا أنها لن تخرج إلا إلى الصالة حتى تزيل بقايا أكل الرجال من الطبلية ومن ثم يأتي زوجها يرفع جلبابه ويسلت سرواله... يضغط على ثدييها مما يسبب لها أقصى ما ستصل إليه من إثارة حتى تمر 45 ثانية يكون قضى فيها وطره داخلها ثم يأخذ قيلولته حتى يستيقظ ليصلي المغرب جماعة في المسجد...

فالأنثى عند الشاب الريفي المتزوج حديثًا تكون "زُكمة ومالهاش غير اللقمة"

لذلك النساء الكبيرات التي يقولون عليها الكبيرة أو الجدة... هي تكون أُس المصائب فهي تخرب عيشة أبنائها بأمر، ولا توجد زوجة ابن تعصاها وإن عصتها فمصيرها الطلاق...

لذلك النساء تتحولن إلى وحوش عندما يكبرن في الريف من القمع والجهل الذي يلاقونه في شبابهم من سيدات قبلهن...

في الصعيد معروف أن الأُم أولى من الزوجة وإن جاء الابن يومًا في صف الزوجة إذًا هو

"خرع ومرته ممشياه على العجين"

وعندما تريد أن تستفز أي رجل في ريف الصعيد العب على وتر رجولته، وهذا ما يحدث في الريف... الرجولة تتمثل في الأمر والنهي لا يوجد ما يسمى الرومانسية فهذا حرام وعيب والضرب لابد أن يكون نصيب أي زوجة جديدة في الريف حيث

مثل "ادبحلها القطة السودة" بعد الدخلة يبدأ الصباحية في خلال أسبوع يجب أن يتلكك الزوج على أي خطأ للزوجة ويلطمها أو يعطيها "العلقة السخنة" حتى يفرض سيطرته عليها في المستقبل كنوع من أنواع التهديد أن عصت... فمن المعروف أن المرأة لا تغضب في الريف الصعيدي وإن ذهبت إلى بيت أبيها تصير مرذولة ويتركها زوجها حتى يذلها أهلها بسُم الكلام فتعود إلى زوجها كائن مكسور يكره حياته وكل من حوله لكنها لا تدرك ذلك... بل فقط تتنازل عن آدميتها إلى حين تصير أم أولاد ويصير لهؤلاء الأبناء زوجات تخرج عليهم جميع خلاياها الدماغية التالفة من هم الزمان...

ومن مثل هذه الأمور كان "خالد" بن خالة "قصي" لا يطيق هذا التعامل الذي تُعامل به الإناث في نجعهم الريفي... فهو من يومه يعشق الأنوثة ويري الطبيعة أنثى قد صنعت الذكور قوة جسدية تستعملها كيفما تشاء...

لا يوجد رجل لا يخضع لأنوثة امرأة... فالرجولة لا تختبر معناها الحقيقي إلا في وجود أنوثة تتوسلها بشغف ومياسة تسلب الجلد الذكوري نفسه... لذلك مهما ضرب رجل امرأة لن يشعر برجولته كما يشعر وهو يرى امرأة تتلوى من المتعة بين فخذيه... هذه هي رؤية خالد الذي طالما أحب الكيان الأنثوي... فحينما كانا هو وقصي صغارًا كان يحب خالد أن يدخل "المحل" أو دورة المياه كما تدعى في الريف ويجلس نصف جلسه وهو يتبول فيسأله قصي...

"أنت مبتسيرش وأنت واقف ليه"

فيكون رد خالد في حمرة وكسوف.

"بحب أعمل زي زينب"

فكان تأثير ذلك جليًّا على قصي فهو كان يعامل خالد على أنه فتاة من الصغر لا لإحراجه ولكن لعشق "خالد" في استشعاره أنه فتاة فأصبح الأمر عاديًّا مع الوقت وعندما وصلا إلى سن العشرة سنوات كان "خالد" يأخذ "قصي" غرفة والدته ويخرج الكحلة من درج الكومود ويتكحل أمام قصي ويرتدي قمصان النوم المختزنة في دولاب والدته ويرتديها على ملابسه ثم يتمشى أمام قصي كالغواني الذين كانوا يرونهم في تلفاز الغرزة...

فيضحك "قصي" على "خالد" وهو يتقلب إلى الأرض إلى أن تغرق الدموع وجهه... فوجود "خالد" في حياته لم يقتصر على قرابة ولا أسرار لكن وجوده كان يمثل كل شيء بمعنى الكلمة فخالد طوال الوقت من الصغر يتعامل مع قصي على أنه رجل وهو أنثى...

فنمى هذا دون إدراك داخل الاثنين فمعنى الأنوثة عند قصي هو خالد، وأول شعور بالرغبه داخل قصي كان من خالد عندما كانا يتحمامان كالعادة في منزل قصي في دورة المياه التي تحتوي على طست الحموم وكوز لصب المياه على جسد المغتسل...

النساء في الريف عادة يحممون أطفالهم إلى وقت بلوغ المدرسة وبعدها يتركونهم لمسئولية مساعدة الوالد في الحقل والدراسة وإتيان الحشيش للبهائم من الريف ففي الريف لا أحد يستجم ولا أحد يستريح... السيدات في الصباح يحلبون الماشية وبعد ذلك يقشطون خلف البهائم بعدما يأخذهم الزوج إلى الحقل لتجف الزريبة بعد تنظيف النساء للفضلات...

الكل يعمل لذلك لا وقت لمراقبة النساء أطفالهن وهذا ما أعطى قصي وخالد مساحة كبيرة لفعل ما يريدون دون دراية من أحد...

مثل هذه الحادثة التي غيرت مصير الاثنين ففي الثالثة عشرعندما كانوا يستحمون في ذات مرة كان خالد يسكب الماء على جسد قصي وهو يتحسس جموده فالفرق كان واضح بين الجسدين خالد كان جسدًا مرخيًّا مرهلًا قليلًا صدره غير مشدود وبه بعض من الغلظة التي تعطي إيحاءً بالأنوثة... ردفاه مملؤتان دهون وزنه يفوق قصي بـ20 كيلو جرام على الأقل أبيض البشرة وناعم الشعر وجهه دائري وشفتاه دائمًا بها حمرة طبيعية وعلى النقيض قصي فهو كان عضلي البنية ذو بئس من الصغر ورث طول جسد أبيه... ففي سن ال13 كان طوله 170سم ووزنه متناسق جدًّا أسمر اللون حاد الملامح وذو لحية نبتت حديثًا بغزارة لدرجة أن كل من كان يراه يحسب أن لديه 17 أو 18 عام... وحينما تحسس خالد

جسد نديمه القوي وهما يتحممان فسار شعور باللذة في وجدان خالد من قوته وبنيته فأمسك يد قصي ووضعها على ثدييه... قصي لم يمانع فهو لا يفهم ما يحدث... فهما الاثنان لم يشرح لهما أحد شيئًا عن هذا فمسك ثدي خالد وضغط عليه فرفع خالد رأسه في مفاجأة من غزو أحاسيس سرت في جسده جعلت الذي بين فخذيه يقفز بسرعة إلى العراء ولما وجد قصي أن خالد مسرور بما يفعله أصابته النشوة هو أيضًا... كونهما تلاحما في هذا الحمام هو تنفيذ لرغبات استفهامية غريزية كانت داخل خالد تجاه ابن خالته قصي الشاعر بلذة في سحقه لأثداء خالد اللدنة يفركها بين يديه فيتلوى خالد وهو يشهق ويغمض عينيه يترك نفسه فريسة للذة التي طالما تمناها في سيطرة قصي على جسده ويفجر الأنوثة التي توارت خلف هذا العضو الذكري الذي وضع خالد يديه عليه وبدأ يقبض لتتجمع اللذة داخله وتثور فيتحرك بجسده على جسد رفيقه الكامن خلفه غير مدرك لما يحدث فالوقت توقف بالنسبة لهم... ولكن قصي كان مستمتعًا بحركة خالد لأنه كان يحتك بفخذيه في عضوه فاستسلم قصي هو أيضًا...

إلى أن باغتهم فجأة من خارج الباب أم قصي "خلص ياد عايزة أغسل" فوقف قلباهما عن الخفقان فور سماعهم هذا ولكن سرعان ما تغلبت اللذة على الحذر فأخذ خالد يقوم بمسك قضيبه وهو يقبض عليه متحركًا على جسد قصي ليشعر بقوته... العضلات تتشنج... اليد تضغط... عقولهم تغيب... النار تغلي في لحمهم... إلى أن خرجت منبثقة كماء كان محبوسًا في خرطوم من قصي فلطخت أرداف خالد الذي أضاف إليه هو الآخر ماءه ليبرد جسده من خروج الجني الذي كان يسكنه ليرتخي وينحني لا أراديًا على الأرض فتصير مؤخرته في حقي خالد ليجدا هما الاثنان باب غرفة المياه ينتر مفتوحًا بيد عنيفة ووجه منحوت بأزميل الزمن...

إنه الجد... تقيأ وجهه عينيه في لحظة سكوت وثبات كأن الزمن اختار أسوأ اللحظات وتجمد عندها... أعضاء منتصبة بقُلف مبتورة تنبض سريعًا إثر القذف... خالد في وضعه منحني ينظر في وجه الجد والجد ينقل عينيه ما بين الاثنين ولا وجود لماء على جسد الاثنين إلا قليل والباقي عرق الإجهاد الذي يتفصد من هول مفاجأة حينما يفعلان ذلك لأول مرة لا أحد يراهم إلا ذلك الجد...

مبعوث الجحيم على الأرض ذو العقل الصخري والقلب المخلي "بتعملوا إيه؟" أنفاس الولدين متسارعة كابوس حي يعيشانه...

يشعران أنهما عاريان ويختبران فعليًّا إحساس آدم وحواء في الجنة عندما انكشفت أعينهم... نظر لهم الجد نظرة متحجرة لا تنم إلا عن غضب شخص هدوءه غضب... فتركهم الجد بهذه النظرة وذهب... خوفهم منه أنساهم عريهم وجعلهم يفكرون في العواقب...

أغلقوا الباب فورًا عندما أعطاهم هو ظهره متوجهًا إلى المندرة التي كان يقضي فيها أغلبية وقته فيها وحيدًا أو مع آخر... أغلق الباب خالد ثم سند ظهره عليه وقصي قرر أن يرتدي ملابسه فارتدى السروال القديم عوضًا عن الجديد بحركات سريعة تظهر توترًا مبالغًا فيه وخالد أيضًا كذلك... هما الاثنان يرتديان ملابسهم كأنهما رجل وامرأة زناة هبت عليهم الشرطة... عبث في التحركات يتخبطون في بعضهم... حتى خرج قصي أولًا... توتره يأسره... يحسب ماذا سيحدث من جده الذي يرى كل شيء بمنظور واحد وهو الشرف والعيلة... هل سيفشي سره لأبيه وأمه؟... أم هل سيصمت مثلما فعل وذهب مكتفيًا بنظرة؟ وإذا أخبر أهله كيف سيعامله أبوه وأمه كيف سيكون منظره أمام أخوته الفتيات

زينب ووردة... أمه كيف ستعامله... هل سيطرد... هل سيقتلونه... فهو سمع في المسجد أن الزاني يرجم... هل ما فعله هو الزنى... فهو تذكر عندما سأل شيخ المسجد عن معنى الرجم فجاوبه...

"يقتلوه يا قصي، يرجموه بالطوب لحد ما دماغ أبوه تتفتح ويقابل ربه"

هل سيرجم؟ ما العمل؟... كان يفكر الفتى حينما خرج خالد من دورة المياه خلفه وأتى ليمسك يد قصي حتى يطمئن عليه بحسن نية فنتر قصي يد ابن خالته مكشرًا له ومحملًا إياه مسئولية ما حدث من مصيبة... فجاء ذلك على نفس خالد كإهانة قاسية... فكيف ونحن الأصدقاء قبل كل شيء تتخلى عني وتحملني المسئولية وحدي... مشاعر خالد جياشة فكون روحه مؤنثة شيء طبيعي بالنسبة لدواخله أن تكون منقسمة على ذاتها... لأن الطبيعي هو أن يخلق خالد فتاة كما كان يرى... فكونه فتى شيء يخجله لا يفخره... كان يفكر في نفسه عكس كل البشر الراضين بكيانهم الذين هم عليه... فخالد كان أنثى داخل جسد مذكر واسم مذكر... لذلك فهو كان يعرف جيدًا معنى أن تكون مكان الآخرين لأنه دائمًا يحيا مكان شخص آخر ويعاني باستمرار معاناة شريرة من كراهيته لنفسه... هذا الخالد أحب قصي ابن خالته كصديق لكنه يعذره فهو لو كان مكانه كان سيفعل أكثر من ذلك بسبب خوفه من الجد... فترك خالد قصي في حوسته وخرج فورًا من الدار ذاهبًا إلى بيت أبيه... أما قصي فكان يذهب ويجيء في الحوش الذي يقبع في الخارج لا يريد أن يخرج من المنزل حتى لا يعبر من أمام المندرة التي يمكث فيها جده هذا الوقت... وفي ذات الوقت لا يستطيع التأقلم في وجوده داخل الدار مع وجود جده فيه... فقرر أن يعبر بسرعة كأنه ذاهب إلى الحقل حتى يساعد

أبيه في حش الحشيش للبهائم فربط جأشه كحبل للمقصلة التي قد تودي بحياته حينما يقابل جده أثناء عبوره أمام المندرة للخروج من الدار... فقرر فعلًا أن يمر... شهق... أسرع بخطواته... مر... "قصي"... ناداه الجد بصوت جهوري سمعه كل من في البيت كأنه عزرائيل ينادي روحه للصعود إلى اللقاء الربوبي... عدم الرد سيعظم عقابه إلى أضعاف لارتكابه خطيئة عدم الرد على الكبير حينما ينادي... تسمر في مكانه... أخذ نفسًا عميقًا... دلف إلى المندرة حيث كان يجلس جده على الدكة المقابلة لباب المندرة يعلوه رأس ظبي محنط معلق على الحائط ينظر لكل من يدخل من هذا الباب

"اقفل الباب"

قال الجد بصوت رخيم لكنه مخيف وهو يسند يديه الاثنين على نبوته الغليظ المكسو من عند ممسكه بجلد الماعز الأبيض في الأسود

"تعال... قرب"

فسخن صدر قصي وشَعَر بقدميه يرتخيان ولا يسعفانه على المشي طبيعي حتى وصل لوسط المندرة وكان بينه وبين جده مسافة أربع خطوات

"قرب"

كررها الجد بغيظ مكتوم يجز على أسنانه بغيظ كافٍ لتوصيل الرسالة الجدية لقصي بالاقتراب حتى وصل مسافة ذراع فسأله الجد وهو يرمقه بنظرة حادة كان يتلافاها قصي وهو ينظر إلى الأسفل...

"كنت بتعمل إيه في الدُورة مع ولد خالتك"

زادت ضربات قلب قصي حد الألم فهو لا يعرف بما يجاوب وجده أمامه قريب وبدون مقدمات وجد كف الجد تلطمه لطمة فيها غل وعنف شعر بهم في باطنه فاختلت أجهزته من صدمة الصفعة وساب جهازه البولي على الرغم منه مسفرًا عن خيط غامق اللون لوث بنطاله دون أن يسيطر عليه... فلم يمهله جده فرصة للتفكير عندما ألقى عليه السؤال مرة أخرى مدققًا في حدة الكلمات بغضب

"كنت عتعمل إيه مع ولد خالتك في الدورة"...

قصي كان في الثالثة عشر من عمره لا يعرف ماذا يقول أو كيف يتعامل مجرد فتى مرعوب... لسانه تحجر كحجبس بناء فهو الآن مفضوح وأفكاره تعصف بسرعة الصاروخ... وفي عقله صداع... صداع رهيب هجم على صدغه من أول لطمة... الأشياء حوله تسير بسرعة في دائرة وكأنه داخل قطار يدور في غرفة...

فلطمه جده مرة أخرى لطمة أشد قضى فيها على أعصاب الفتي تمامًا فساب ما تبقى من ماءه على الأرض... هذه اللحظة التي يستسلم فيها الشخص للكسر والخزي من فرط الشعور بالخوف فلا يبقى على أي ذرة كرامة داخله

"وكمان عتسير على نفسك ياوصخ... ده أبوي كان عيضربني ع النخلة بالكرباج ولا كنت أصرخ... وأنت عتشخ على نفسك يامرة"...

فسلمت يد الجد على وجه قصي للمرة الثالثة عقابًا للفتي على خوفه فسقط على الأرض الفتى غارقًا في بلله ورأسه ثقيل... الألم يفجها...

فجاء جده بحذاءه الملبد بخراء الزريبة ووضع قدمه على رأس قصي إلى أن أخضعها تحته وهو يقول له

"كنتوا عتنطوا على بعض يا خ..** !! ولد ولدي أنا عينط ع الدكورة اللي زيه... مين ياد اللي كان عينط عالتاني"

ركل الفتي في أنفه بحذاءه فسال الدم من أنفه فورًا ممزوجًا بدموعه... وكرر الجد السؤال

"انطق ياض مين اللي كان عينط عالتاني هو ولا أنت يا..؟!"

هم الجد الوحيد هو الشرف ولا يؤججه غير أن أحد أفراد عائلته تم هذا معه... كيف وكيف... فهم مِلكه ما دام هو الكبير فلا يوجد من يجرؤ وأن يقول أنه حر فالكبير قواعده تسير على الكل وحتى تَقززه وكراهيته تشمل الجميع حتى أكله يسير على الكل

"معملتش حاجة ياجدي والله العظيم ما عملت حاجة"

قال الفتى وهو يأخذ الركلات باحتقار من جده في جميع الجهات والأماكن ليأتي بعدها الجد بالكرباج المعلق على الحائط من أيام العبيد... فدخل ابن الجد وأبو قصي ليجد أباه فوق الكنبة كي يتمكن من مسك الكرباج المعلق عاليًا على الحائط وقصي على الأرض غريق في خليط من بول ودماء ودموع... أصفر على أحمر على شفاف... حمأة من السوائل المقززة فبدون أن يفكر ذهب أبو قصي ليطمئن على ولده... وهو يتساءل في نفسه عن ماهية الذي يحدث بين ابنه ذي الوجه المُدمم وأبيه الثائر على حفيده... ثلاثة أجيال في حلبة قتال واحدة...

الفتى الحديث أُودي به على يد الجد الأثري ومَن بينهم ينتظر مصيره من نطحات متوالية... أتى الجد منتفخ الأوداج وهو يرفع الكرباج السوداني في تقمص لشخصية السيد ثم ضرب بكل عزمه الجسدين... ابنه وحفيده... فتلقى أبو قصي الجَلدة على جسده لحماية الابن وقام حتى سيطر على غضب الجد الثائر...

"فيه إيه يابوي؟"

قالها أبو قصي وهو يحاول أن يقيد الجد زائحًا إياه بعيدًا عن قصي فيلطمه الجد بيده الحرة ويقاومه وهو يتمتم

"بينطوا على بعض يا..* ولدك وولد بت ال..* بينطوا على بعض في الدورة"

فنظر الأب على قصي ابنه الذي كان على ضفاف فقدان الوعي لا يدري ماذا يفعل...

ففلذة كبده أمامه غريق في الوجع والألم قبل الدماء... وأبوه تحول إلى ذكر حيوان شرس لا يفكر إلا في فرض سيطرته على العشيرة بقتل كبش فداء يريد به أن يقضي على العار الذي حل ببيته... وفي هذه الأثناء خَشت أُم الولد مذعورة من الصوت مصدومة عيناها عندما رأت بكرها ووحيد ذكورها على الأرض مدمي...

صرخت صرخة حريم مريرة مرارة الحنظل وهي تضرب يدها على صدرها

"ولدي"... مفزوعة ومذعورة على ابنها فجاءت تركض نحوه ليتلقفها الجد بيده وينظر لها نظرة انتقام دافعًا إياها للخلف بقوة فتعثرت

المرأة وسقطت بجوار ابنها وزوجها... لم تعر الجد اهتمامًا بل انتقلت عيناها في مرحمة وفزع على ولدها...

جسدها المفصول عنها وروحها المتجزئة منها "مالك ياولدي" تنهمر الدموع على الفتى وهو يرى لهفة أمه وحماية أبيه ضد الطغيان الأثري الذي يلقاه من جده الذي لم يجد فريسة أفضل من تلك ليفض شهوته من الغل أتى بالكرباج مرة أخرى وبعماء ضرير أخذ يضرب في الثلاثة أجساد وهو يسب ويلعن بأقذع أنواع السباب وكأن السباب حلال وما يفعله في الفتى شرع الله...

وحتى الآن لا أعلم السبب الحقيقي للسب والقذف أثناء معاقبة أحدهم وكأن المعاقِب يريد أذية المعاقَب في روحه أيضًا ولا يكتفي بألم الجسد... إنه الطبع البشري "الأذى"..

أخيرًا تعب الجد من انتقامه في أجساد أسرة ابنه الذي كان يتحمل الجلدات عن قصي وأمه... فشعر الجد بنشوة للحظة الأخذ بالثأر لنفسه وقوانينه وعاداته وتقاليده التي تعداها الحفيد الكافر...

فسكت وهو يأخذ أنفاسه المتسارعة فلم يكذب الأب خبرًا... رفع قصي هو وزوجته وأخرجه من المندرة كأنهم يخرجون محروقًا من حريق... تركوا الجد الغاضب حتى يتمكنوا من مداواة الولد المصاب في أنفه ورأسه إثر السقطة التي سقطها على الأرض...

الأم تتمتم بكلمات سريعة "اسم الله ياولدي عليك" "ياكبدي ياولدي" كلمات كلها أسى على حال الولد حتى وصل إلى غرفته... أراحاه على السرير وهو يبكي على حال والده الذي حمل عنه عذابه في الجلد...

في الريف لا يقول الوالد للولد أنا أحبك بل لا يقول أي رجل أنا أحبك لأي شخص مهما كان لأن الحب ضعف... لكن في هذا الوقت قصي رأى بعينيه حب أبيه في فعله لم يسمع كلمات محبة من أبيه لكن ما فعله الأب كان كفيلًا لتوصيل الرسالة...

سأله أبوه "أنت كويس ياولدي" وهو يبعد عينيه عن عيني قصي لئلا يرى الولد لهفته عليه فرد قصي على والده بنهنهة طفل يبلغ السابعة

"والله يابوي ما عملت حاجة"

فقاطعت الأم الولد وهي تقول للأب "روح أنت ياخوي كُل الأكل بره... بت يازينب حطي لأبوكي الأكل"

فترك الأب الغرفة ببرود وكأن الموقف حدث منذ سنين... الجاني هو أبوه والمجني عليه هو ابنه وأنف الولد ستصير جيدة من النزيف فلا حاجة للقلق بل الحاجة للراحة فالضرب والعقاب عادي يحدث ثلاث مرات في اليوم كما الأكل... أما المشكلة الحقيقية فهي مشكلة الولد مع ابن خالته لذلك سيحلها أبو قصي بمنعه وحرمانه من مجاورة خالد وإن تعدى قصي على مثل هذا القرار حينها سيأخذ نفس المصير مرة أخرى لكنه في هذه المرة من الأب ولن ينجده أحد...

تقطرت هذه الذكريات في سحابات تذكير قصي الراقد في سريره بجوار زوجته التي لم يخترها قلبه لكنها ملك جسده الريان... تسجد له كل صباح هذه الزوجة في قيامها كأنه إله لا تراه... ويتعجب هو منها فهي على الدوام تنظر له نظرة من خلالها يشعر أنها لا تراه نظرتها له تشعره أنه غير موجود أو أنه شخص آخر...

هذه الفتاة التي زوجوها له غصب واقتدار تجعله على الدوام صريع انقلابات أفكاره... تصنع له الأكل دون ابتسام فهي لا تعلم ماذا يعني الابتسام للزوج وإن ابتسمت تبتسم ابتسامة بلهاء لا تمت لكونها زوجة بصلة... تأتي بالطبلية عندما يعود من عمله تضع عليها ما طبخت مع الحريم في الدار لأنه يكون تأخر على ميعاد الغداء للكل ولا تشاركه الغداء لأنها تكون قد أكلت قبله... تجلس بجواره يدها على وجنتها تنتظر أن يقول لها احضري ملحًا أو خضارًا أو أي شيء لتذهب وتجيء بالحاجة ثم تجلس مجددًا نفس جلستها في انتظار أي طلب آخر كأنها جثة حية تتحرك وكأن لا حياة فيها تنتقل من مكان لآخر لا تتكلم معه في شيء وحينما يستحثها على الحديث معه في مواقف حدثت معه في العمل أو في حال البلاد تستمع فقط في بلادة ولا ترد بكلمة...

حتى في ممارساتها الجنسية معه تفعلها كل يوم... أن ترتدي قميص نوم أحمر مفتوح وتذهب له كأنها تريده أن يتمم مهمته معها وعندما يتجاهل غباءها وحيوانيتها لا تهتم فقط تنام أما عندما يغلبها احتياجها تميس وتصير كالقطة اللعوب وتستعد أن تفعل أي شيء مهما طلب بشريطة أن يضع قضيبه في مهبلها ويخمد ثورتها بحنكته التي لم تعلم أنه متفرد فيها...

قصي كان يعي معنى كلمة جنس ليس كباقي الخلق في بلده فهو كان يداعب سعدية في كل مكان حساس في جسدها حتى يسيل فرجها بإفرازعسله اللزج ثم يوصلها للذروة حتى ترفع حقيها لأعلى وتهز السرير برعشة طالما عبدتها كالوثن لكنها بالفعل لا تفهم أن قصي غير الآخرين اللذين يعتبرون نساءهم مبولة لفض الوطر والحاجة لأنها لم تجرب الأسوأ منه فصارت جودته شيئًا عاديًّا...

هي بالنسبة لقصي مجرد فتاة أحضروها له بعد إتمام مراسم الزواج وقالوا له هي ملكك وهي لم تقاوم فهي فتاة في ربيعها تصبو وريحاناتها تتبلج وتستجدي من يرويها ويستحثها أيًّا كان نوع الراوي هي لا تهتم ولا تفهم معنى لخصوصية جسدها أو ماذا تعني كلمة زواج...

فهم قالوا لها هذا زوجك وأم قصي قالت لها

"تبعيه في أي حاجة يعملها مهما كانت ومتخافيش"...

هل هذا هو الزواج كان قصي يتساءل بعد هذه السنين كلها هذا السؤال مئات المرات ليهطل عليه برد وصواعق الفكر التي لم تفارقه منذ دخوله كلية الآداب قسم الفلسفة التي علمته أن وجود كلية لتعلم الفلسفة هو في حد ذاته شيء غير فلسفي...

فحب الحكمة وليد التأمل والاختلاء بالفكرة في غرفة الأسرار الذهنية...

"الزواج ما هو تعريفه ما هو تعريف اللفظ نفسه... هل هذه التي تضع رأسها على كتفي زوجه... هل الزواج شهادة الأهل وخوار الجسد أمام الطبيعة والحاجة... ما هو الزنى هل اثنان أحبا بعضهما البعض بحق زناة إن تتمما في جنان اللمسات وفراديس دفء الاحتضان بعيدًا عن شر الأخذ والعطاء الدنيوي... هل الزواج مزيج من الإشهار والمحبة أو الإجهار بالمحبة كما رسم الله للبشر أن تتجلى صور الرحمة والبذل والتضحية في الزواج... ولكن هذا لا يحدث، فقصد الله أولوه إلى حكم بالشريعة لو لم يوافق البشر على هذا التزاوج فهو صار غير شرعي وكأن الأمر في يد الآخرين لا في يد أصحاب الأمر"...

أسئلة... أسئلة تجول في خاطره حتى تذكر حادثة أخته زينب التي عشقت "محمود القللي" الذي كان يعبدها صباحًا ومساءً... لا ينسى قصي عندما جاء محمود بن "حسن" صانع الفخار ومشكل الطين... جاء محمود يتكلم معه بخصوص خطبة زينب ولا ينسى نظراته عندما كان يتكلم عن أخته بحياء ولهفة مكبوتة تتأجج داخل فؤاده كالمرض العضال هذا الشيء الذي أفرح قصي الذي طالما استشعر العشق والحب وميزهم عن سائر المشاعر الأخرى... فللحب لمعة كلمعة العين الدموعة تنبثق للمحبين فقط كالأسرار للمنجمين... العشق لا يدركه الباقون فهم يعتبرونه نوعًا من أنواع المسكنة أو التأثر الزائد بالقصص أو إعجاب يأتي ويذهب مع تغير الشخص لكن قصي كان غير الناس فهو كان يحترم الشعور والمشاعر والبواطن ويعتبرها هي ما ميزت الإنسان عن سائر المخلوقات وليس العقل فكل المخلوقات لديها عقل تفهم في حيز أضيق من البشر ولو كان يوجد نوع أزكى من البشر فكان مصير البشر سيكون في الأقفاص لحدائق الحيوان كنوع أدنى ذكاء ليس إلا ولكن لا يوجد نوع أو جنس يتميز بالمشاعر إلا البشر، وقصي كان يميز جيدًا ما بين المشاعر والغرائز والأحاسيس...

فالغرائر والأحاسيس توجد في الكل لكن المشاعر هي شيء داخلي عميقة كالبئر ويكمن في هذا البئر ثعبان الحب الذي يبث في ماءه سم العشق والجنون فيسيطر هذا السم على كل الغرائز والأحاسيس والأفكار...

المشاعر خصصت الإنسان عن باقي الكيانات بسمو حسي يتلمسه قليل ممن يعرفون قدر هذه الهبة التي ميزهم بها العلي من روعة وإبداع...

الحب والعشق كانوا في عيني محمود القللي الشاب البسيط الذي دفعته مشاعره أن يقرر بعقله تقديس جسده لزينب التي عندما فاتحها قصي في موضوع محمود هبت في وجنتها حُمرة فدان حقل من لِبَاب الرمان... وردة صارت منغلقة في خجلها الصبوح...

لا أعلم ما سر الخجل لكني أراه ذروة الجمال...

لم ترد الفتاة على أخيها قصي اكتفت بإشاحة وجهها في كسوف يشبه كسوف القمر بالجمال... ملامحها عن غير قصد كانت كالقصيدة التي قوافيها من العشق والدلال وسجعها. خفة الظل والجمال...

فهم قصي ما يدور بينهما من ردود أفعالهما... فإن وجدت شابًّا ضعيفًا وهو يتحدث عن فتاة فهذا هو إيذان الاستسلام لعصف المهجات التي تكتنف قلبه الرؤوم... وإن رأيت فتاة يخجلها ذكر اسم شاب معين فاعلم أن روحها سقطت لتنقع في بحيرة الغرام...

قال قصي في رده على محمود القللي

"والله يامحمود أنت شاب ابن ناس وأنا عارفك بس الأمر مش في إيدي أنت فاهم إن الحاج سالم جدي هو اللي بإيده الأمر أولًا وأخيرًا بعد ربنا سبحانه وتعالى..".

فابتلع محمود الغصة التي تحجرت في حلقه... فهو يخاف هذا الرجل، ومن أساسًا لا يخاف من مواجهة هذا الرجل المزهو بذاته وبنسبه... لا يهمه في هذا الكون إلا أن يصير رأيه على الكل فريضة... يرى ذاته عارفًا باللامعلوم ودارياً باللامدرك كأنه إله لا يترك مجلسًا إلا ويذكر كلمة أنا أكثر من سائر كلمات حديثه لا يترك شيئًا إلا ونقضه وشوهه... يرى

العالم كله من منظوره فقط وأي منظور آخر هلاك فكيف محمود سيواجه هذه الواجهة الصلدة...

أخذ محمود أباه حسن بعد صلاة الجمعة في المسجد وبعد الختام والسلام توجهها "للحاج سالم" جد قصي يستأذنانه أن يشربا معه الشاي في المغرب أو بعد العصاري والغداء فنظر لهم "الحاج سالم" نظرة استنكار وهو يهز رأسه على مضض بالموافقة ومشى دون أن يستأذنهم فتحرج محمود أمام والده الذي كان يفهم طبيعة الحاج سالم وأنفه التي تعدت السماء في الكِبر والأنافة ولكن مهما كان فالشيخ حسن القللي يريد سعادة محمود وهو يرى لهفته نحو فتاة السوالم الذي يَعتَبر كبيرهم "سالم الصِبيح" أنهم جنس ثالث أتى من علياء أخرى لا أحد يعلوهم جاهًا وعظمة وكأن هذه القرية التي لا تتعدي ال20 بيت منثورين بين الحقول عزبته أو جمهوريته وهو الرئيس غير المنتخب والأنكى أنه صدق نفسه أنه أعظم من في هذا العالم...

حقًّا عجيبة هي أفكار البشر كل شخص منهم يرى نفسه الأجدر والأحق في أي شيء يقبل عليه... أحدهم يصف نفسه بإله الشيء والآخر فنان عصره والثالث مبدع الجيل وكأن العوالم والأكوان والنجوم تدور حول هؤلاء البشر...

جاء محمود وأبوه في المعاد بالحُلَل الجديدة والمفرودة بعناية مع تقدمه مُشرِفه من الفواكه الطازجة أحضرها من البندر... طرقوا باب السوالم ففتح لهم "سليم سالم الصِبيح" أبو "قصي" في بشاشة وود انفرجت لها أسارير محمود وأبيه اللذين لم يتوقعا استقبال الأب البشوش، وضعوا زيارتهم خلف الباب ثم تقدمهم سليم إلى باب المندرة التي كان يجلس

فيها "الحاج سالم الصبيح" بنفس طريقته المعتادة أسفل رأس الظبي ويضع يديه على نبوته ينظر لهم وهم داخلون كأنهم شحاذون يستجدون العطايا... فحاول محمود بشبابه أن يلين هذا الوجه الصوان فذهب مادًّا يده نحو الحاج سالم فنظر له الجد نظرة جامدة لم يحرك فيها رأسه بل اكتفى بحدقة عينه ولم يمد يده ليسلم على الولد فارتبك محمود وشعر بالرفض والثقل لكن دخول قصي على محمود بالأهلنات والسهلنات والأحضان خفف حدة الأزمة التي صنعها الجد الصامت...

أحضر قصي الشاي وبدأت الرشفات الملسوعة بسرعة تُسمع ثم أردف حسن القللي

"إحنا ياحج سالم معيزنش نزعدوكم أكتر من كده... هادخل في الموضوع دغري الواد محمود ولدي عبال عيال عيالك كده... كبر... والولية في البيت خاربة بيت أبونا عشان ندوزه هههه"

ضحك الجميع ماعدا "الحاج سالم الصبيح" الذي مازال يعطي صدة مقصودة بوجهه فأكمل "حسن القللي" بعدما صمت الجميع

"واحنا نتشرف ونناسب بيت السوالم ونناسب أبو قصي في زينب بت ولدك سليم لمحمود ولدي"

ورشف رشفة من الشاي وسكت... قلب محمود صار يصرخ من الوجيب والخوف الذي انفطر في صدره من صمت الحاج الذي لم يتكلم كلمة واحدة حتى هذه اللحظة وبالطبع "سليم سالم" ابنه لن يتكلم ويعطي انطباعًا في وجود أبيه حتى وإن كان الأمر يخص ابنته...

ففي هذه المندرة يجلس جميع من ليس لهم القرار ليأخذوا القرار...

وصاحبة الشأن الحقيقي ترنو نحو الفرح بأخيلتها وتنحدر نحو الألم في واقعها خارج حدود غرفة البيع والشراء التي تكونت حين استبدل وصال المعنى بوصال الحاجة وأصبحت شروط الزواج أهم من الزواج وموافقة الأهل هي الحل الرسمي والإلهي وكأن آدم وحواء عندما تعارفا حجز لهما العلي في الشيراتون وعزم حيوانات الغابة كمعازيم...

أو أبناءهم الأخوة عندما تضاجعا شرط آدم على ابنه بتوفير سكن لأخته في قصر على الساحل الشمالي و5 قراريط ذهب وحلي ولؤلؤ...

آدم وحواء والله كانوا في عمق وصال المعنى بدون حواجز الشريعة وقسوة الحرف... الله ينظر إلى إبداعه... (الإنسان) الذي هو إله محدود يشبهه في حرية الصنع والفكر والاختيار...

هذا هو الحق والسلف الأحق بالاقتداء حين كان الإله والإنسان في شركة وامتزاج معنوي كانت الأمور أكثر بساطة وأقل تعقيدًا... لكن هنا عين هذا الرجل الذي لا يمتاز عن أي أحد في هذا البيت غير أنه ولد قبلهم وكان هذا الأمر الذي هو أهم إنجازاته في الحياة يعطيه الحق في كل ما سيفعل...

نظر إلى محمود باحتقار مبالغ فيه...

"شغال إيه ياد"

فارتبك محمود في اللهجة

"أنا بدرس ياحاج في كلية تجارة و...".

فقاطعه الجد بصوته الأجش: "بتدرس؟... عتوكلها ورق يعني ولا إيه"

وصلت الرسالة لمحمود وبصعوبة ما سيواجه

"لا ياحاج ما أنا كنت هاقولك بجانب إني بدرس... بشتغل مع أبويا في الفخار وبنزل السوق كل يوم سبت و...".

"عتلعب في الطين يعني"

فنظر محمود إلى الأرض وهو يزج الإهانة في قلبه صبرًا على هذا الرجل الذي باغته بالسؤال التالي

"عندك طين؟"

فتكفل بهذا الرد الشيخ حسن بوقار

"لا والله ياحج إحنا من يومنا خزافين مالناش في الفلاحة والطين والري"

فنظر الجد نظرة باردة ثم سأل محمود عن قصد بتجاهل الشيخ حسن الذي كان يوجه له رسالة "أنا الكبير هنا"

"عندك بيت هنا"

فتكلم محمود في نفاذ صبر

"لا والله ياحج هو بيت أبويا بس"

كان في هذه الأثناء يسمع قصي ويرى جده بعنفوانه الكئيب وكبرياءه المذري يذلل من قيمة محمود ليس بسبب أنه ذو قرابة مع أخته زينب... حينها تعالت في فكره المصائب ووسوس في أذنه الجحيم عندما رد على جده "سالم الصبيح"

"وأنت مالك؟"

قاطعًا ضجيج الذل بصيحات الغل في أنفاس جده الذي نظر له بعينين تبثان سم العنف من مقلتيهما... فقال الجد بزجر ظاهر

"بتكلم مين أنت"

سليم يوبخ في قصي ابنه بعنف

"أنت بتستعبط يابن الدزمة بتتكلم وجدك قاعد"

قصي حينها أكمل ال27 بهيئته القوية والفخيمة نظر في تحد

"أيوا أنا بكلمك انت، أنت مالك؟ شيء المفروض ميخصكش اللي بتسأل عنه محمود؟"

فرد محمود بلطف ليهدئ من روع الموقف "صلوا على النبي ياجماعة... طب نستأذن إحنا ياحاج"

الذي لم يرد عليه معتكفًا في صومعة الشر الداخلية مع عناد حفيده قصي الذي أمر محمود

"اقعد يامحمود، زينب أختي أقربلي من أي حد"

لم يجب "سليم" بل اكتفى بالنظر على ردة فعل أبيه "سالم" الصامت على غير العادة عند حلول شطر العناد...

"أنت يامحمود، شاب جدع وتشرفنا تاخد زينب بس ده ميمنعش إنك تدينا فرصة نشوف رأيها ونرد عليك"

قال ذلك قصي في حضرة الكل وهو ينظر لجده...

وصمة الألم في حياة طفل ذي قرابة لك ولا تكتفي بما سببته له من ألم بل تزج بيدك على كل جرح قطعت به نفسه وكل إثم لوثت به روحه وكل كراهية أرضعتها له فاعلم إذًا أنه بأعمالك ستدان وسيأتي اليوم الذي تكون فيه قد قتلت وصال الدم والقرابة والعشرة داخل هذا الشخص حتى يتحول لألد الأعداء عندها ستختلف الأيام ويصير الضعيف قويًّا والقوي يهرم ويصدأ كالصاج القديم وهذا هو ما أيقنه الجد "سالم" في عيني حفيده التي كانتا مشوبتين بحرقة أوجاع الزمن الغابر والقلب المفطور...

عينان عنيدتان حد القتل... لا تتفاهم بهدوء لكن في صراخ داخلي تبعث سهام التحذير إلى كل من كان موجودًا... فشر الجد الذي لقمه في نفس هذا الرجل "قصي" كالدانة "في المدفع... نجح في تشويه نفس حفيده بحقده وتسلطه جعله من أيام طفولته ينتظر لحظه انتقام... جلد إنسانيته من كثرة الكراهية التي وجهها له ليصل قصي إلى طابق الحطام البشري ليصير بشرًا آيلًا للسقوط مع أول زلزال نفسي يتعرض له فيتخلى عن الرحمة الإنسانية ويدخل إلى الغابة في زي الكاره والباحث عن حق المهدور...

قصي طوال حياته كان هادئ الطباع كالبراكين الخاملة يغلي ويتلظى من الداخل من مرار النفس وسط بيئة لا تعرف إلا الجن والمس والشياطين مصادر لمصاعب النفس...

في هذا الوقت أعلن للكل استبياعه نفسه عندما رأى "محمود" يواجه الذل نفسه

"فإن كنت أيها الجد، تصب على نفسك هالة قداسة نحن مصدرها فلتذهب أنت وقدسيتك إلى الجحيم على عجلات قلبي... نحن من نعطيك حقك في التكلم هنا ونستلزم السكوت... نحن من نعطيك هيبتك عندما نرضى في إهانتنا احترامًا لطول أيامك وكبريائك واحتقارًا منك لصغر عهدنا... نحن من عيناك ضاربًا وجلادًا قائلين بخبرته سيعلن المعرفة... لكن لم أعهد في كبريائك تعليمًا بل عهدت فساد روح ناقصة... تشبع في تخنيع النفوس وكرامة ذميمة لم تبنها إلا من طين وطوب كرامات الآخرين... أيها الشيخ الأقذر والإنسان الأحدر لن يشفع لك داخلي إلا أعمالك الرديئة على قدرها وهيئتها ستنال وصالي... كنت معي شيطانًا تقحمني الألم دون رحمة لذلك قتلت داخلي الرحمة حولتني تجاهك مخلوقًا كريه الكيان أيها الشرير جعلتني أقتلك في السهد مئات المرات بكل الطرق والفظائع... ولدت داخلي الانتقام وهذا هو يوم الانتقام"...

هكذا كان يتفكر في نفسه وهو ينظر إلى جده "سالم الصبيح" كبير السوالم الذي فهم أن أي تعدٍّ لهذا العاق في ذلك الوقت سيؤول إلى قوة الجسد وغشامة البصيرة التي يتفوق فيها شباب قصي...

لملم فتات كرامته التي دهسها حفيده بغل يمنح النفس نشوة الانتقام وذروة القوة... أما "سليم سالم" أبو قصي لم يعلم أين هو وسط هذه الحرب الضروس فروحه وحنقه مع ابنه الذي كسر الكبرياء وجلجل بعدله في فضاء المندرة... الشيء الذي كان يفتقده من أبيه وسط براثن العادات والتقاليد والعيب والحرام فعله ولده امتداده وفخره لكنه أيضًا في قرارة نفسه أبيه "سالم" هو ابوه وإن شاء فقتله فهو أبوه ووصال الدم بالنسبة "لسيلم" لا يقطعه قاطع وقيل له أنه أن من لا يبر والديه سيدخل

جهنم وبئس المصير مهما كان الوالدان سيئين وأنه إن فعل هذه المعصية سترد له في أولاده وأحفاده من بعده سيؤذونه مثلما تمرد هو على أبيه...

لكنه محاجًّا نفسه فكر أنه... من قال أن قرارات وأفكار أبي هي أبي فأبي هو شخص حقه على في شخصه في إطار البر والاحترام لا في قبول أوامره كسُنة وشريعة... فكم من آباء علموا أولادهم الكذب والسرقة والجبن خلف ستار طاعة الوالدين...

هيجان عقل "قصي" كان ميراثه من أبيه "سليم" الذي لم ينطق ببنت شفة وقصي ابنه يودع محمود القللي وأباه في أثناء خروج الجد سالم دون أن يكلم أو ينظر إلى أحد غير نفسه وكرامته المسكوبة وكيف سينتقم من هذا القريب الذي جاء من نسله...

****

كل هذه الذكريات تجوب في وعي قصي كأنها عرض مسرحي أنيق فقام من سريره حتى يرتدي ملابسه لاستقبال توأم روحه خالد ابن خالته الذي كان في القطار على مشارف محطة نجع "السلايمة"..

نزل قصي في السادسة صباحًا حيث كلاب الحقول تسلم حمايتها للفلاحين والفتيات الصغيرات في الحقول بملابسهن المزركشة وأقمطتهم العشوائية ولعبهم الدليل في وسط غيوم الصباح... وصل إلى المحطة انتظر على أحد المجالس الرخامية يشعل سيجارته ذات التبغ الهندي المستورد إلى أن جاء القطار في ترحاب القلوب والعائدين...

نزل خالد دون شنطة أو شيء يحمله يتلفت يمينًا ويسارًا على قصي الذي رآه فرفع له يده بإشارة عشوائية للفت انتباهه فرآه خالد مبتسمًا

فتقدم الاثنان كل منهما نحو الآخر وحشة حقيقية ولقاء دمس...

تحاضنا بضع ثوانٍ يبثان حرارة الصداقة لتبدد صقيع الصباح بعد فراق عام عن آخر لقاء كان بينهما

"واحشني ياصديقي"

قال قصي وهو يفتك نفسه منه ناظرًا إلى وجهه الأليف الرقيق

"أنت أكتر يابن خالتي" فوضع كل منهم يده خلف ظهر الآخر متحاضنين في ود وصداقه تبوء بعرفان وتقدير كل منهما للآخر...

- كيف حالك يا خالد، واحشني والله

- تمام ياقريبي، نوصل البيت أسلم على أمي وأحكي معاك

تمشيا حتى وصلا بيت خالد... سلم قصي على خالته ونظر لخالد الذي قبل والدته بحنان مفرط وسؤالات حنونة عن الأحوال والمعيشة... خالد كان الشخص الأكثر طيبة في نظر قصي... نظراته حنونة على الدوام مُشفق على الكل اعتاد الألم والإهمال كان مرذولًا على الدوام إلى حد كبير في نجعهم فالبشر لا يحترمون الطيبين هم يحترمون المال ويركعون للسلطة ويتمرغون في مداسات أصحاب الجاه... البشر جزء منهم ليس بقليل حيوان يأخذ الغابة دليل حياته إلى السعادة والسيطرة على الآخرين في سبيل الفرح...

من بعد السلامات والتحيات استأذن خالد في وقار متمدن من أمه الفلاحة طالبًا منها أن يرتاح من هم السفر وأخذ معه قصي إلى غرفته القديمة دخلا فيها ولم يتغير فيها شيء من أيام الطفولة عدا مساحتها التي تقلصت استجابة لكبر أجسادهم

- "والله زمان ياخالد ليك وحشة" ابتسم خالد وهو يجلس على السرير

- "والله أنت أكتر ياقصي فين أيام زمان لما كنا مش بنفترق حتى وقت النوم"

- "أيام زمان مش هاتتعوض ياصديق"

- عندك حق... قُلي أخبار مراتك إيه؟"

- ههه تقصد الجاموسة؟... سبتها في البيت نايمة"

- جاموسة؟!!.. من الواضح أن بتعشقها ياقصي"

- هه يابني دي واحدة لا أعرفها ولا تعرفني جابهالي الزفت جدي الله يكحمه مطرح ما يروح وقالي دي مراتك وجوزهالي بدخلة بلدي...

- حق ياقصي فكرة الدخلة البلدي محصلتش من وقت طويل... بس أنا مش فاهم أنت قبلت إزاي؟

- أنا قبلت غصب عن إرادتي جدي طول عمري يناديني يامَرة ويخجلني من ذاتي وشككني في نفسي ويعاملني معاملة العدو... فمكنش قدامي حل غير كده أعمل اللي هما عايزين يشفوه وأفتحها عشان يرتاحوا وأتجنب أنا نظراتهم وهمسهم...

- الله يكون في عونك يابني أنا عارف كلامك كويس

- بس أنا مسكتش

- إيه عملت إيه؟

- كل اللي عمله جدي فيا السنين اللي فاتت طلعته عليه من كام

يوم أنا مرمطت بكرامته الأرض وقدام الناس...

- يخرب بيتك ياقصي مرمطت كرامة جدك سالم؟!! طب احكي احكي

فضحك قصي في افتخار

- هبقى أحكيلك في الليل أنا هسيبك علشان تنام دلوقت

- ماشي ياعم قصي طب مقربناش نفرح بيك كده ونشوف عدي؟

- فرد قصي برد يحمل جدية في إطار هزلي

- مش لما أتجوز أساسًا؟

- إيه ده أومال الجاموسة اللي بتنام معاها دي تبقى مين؟

- تقدر تقول كده أن ده زنى شرعي بالنسبالي...

- زنى وشرعي؟!!

-أيوه زنى شرعي ياخالد... ببساطة أنا مش متجوز الست اللي في البيت بس الشيخ كتب عقد جواز بيني وبينها قدام الناس فهي قدام الناس بيسمحولي إني أنام معاها لمجرد إنهم موافقين على كده مش لمجرد أنا عايز كده... تقدر تقول بمعنى أصح أنا متجوزها بس مش متجوزها بنام معاها علشان الكيف بيذل أنت فاهم بقى وهي كده برده بتنام معايا عشان عايزة أي حد مش فارقة أنا ولا غيري وده في حد ذاته زنى... وهو ده السؤال اللي بسأله لنفسي من ساعة ما ركبتها قدام جدي هو ربنا بيعتبر ده زنى ولا جواز؟

رد خالد معجبًا بمنطق قصي الذي شجعه كثيرًا على عدم إنكاره حقيقة اختلافه كمثلي الجنس مع أن قصي غير مثلي وإنما كانت هذه الذكرى التي أججت الحمى في قلب الجد سالم من ناحية الاثنين ما هي إلا فيض الحرمان عندما ينضح على الجسد...

أكيد لأ ياقصي ربنا بيبص للقلوب وإلا مكانش اعتبر كل اللي اتجوزوا من غير عقد مش متجوزين... بص أقعد أقعد ماتمشيش الموضوع حلو أقعد وهنام بعد شوية...

حرك قصي الكرسي مقابل سرير خالد الذي كان قد أراح جسده عليه

"طب أديك قولت أهو أن ربنا بيبص للقلوب وأنا والمتعوسة اللي في الدار... دي قلوبنا مشافتش بعض أساسًا أنت فاهم يعني إيه واحد عنده 25 سنة يجوزوه عيلة 16 سنة وارضى علشان مجرد تقاليد...

– فاهمك والله ياعم، وهو أنا سبت المكحوتة دي من شوية.

– طب عارف ياد ياخالد، أهم قتلوا فرج فوده السنة اللي فاتت علشان عايز يعمل بلد يتحرر العقل فيه من قمع التعصب والعمى الغبي اللي بيعمي الناس عن الله الحقيقي هل فيه تقدم حصل بعد ما قتلوه... بالعكس البلد بقت إرهابية بمعنى الحرف

– والله عندك حق ياد ياقصي... بس مهو برده محدش عارف العيب عيب مين...

– العيب عيب الإنسان الوسخ اللي بينظر لواحد زيك وغيرك على إنه مجرم... وهو أنت عايز تفهمني يعني أن ربنا خلقك زي ما أنت بطبيعتك دي علشان يكفرك والناس تشتمك والكهان يشوهوا صورتك في كل

دين... يابني إذا كان ربنا خلقك زي ما أنت فهو مايهموش ميولك هو يهمه أنت إنسان كويس ولا إنسان قذر... ربنا مش بيبص أنت إزاي بتعيش حياتك ربنا بيحاسبك على دواخلك... يعني شيخ الجامع اللي اتجوز تمانية طلق منهم أربعة بشرع الله علشان يتجوز الأربعة التانين وكلهم تحت ال25... بيستغل ربنا علشان متعته وإذا كان بيقول على حد شاذ يبقى هو مش انت... ربنا هو اللي هيحاسب مش الناس ياخالد والمشكلة الحقيقية في البلد دي أن كل واحد فاكر نفسه نبي علشان حافظ كلام النبي...

- فرد خالد بأفكار مشوشة.

- طب مهو ربنا لعن اللي زيي في كل كتاب فعلًا ده هما مش بيجملوا... العيب عيب ربنا مش عيب الناس ياقصي، العيب عيب الدين نفسه شوف الأساس جاي منين...

- أنت بتستهبل ياد أنت مش شايف المسيحيين ياك على أساس إنهم بيؤمنوا بالرسول والصحابة والسنة... محصلش هما مش بيؤمنوا بكده بس على الرغم من كده لا حد قتل ولا حد شتم مفيش غير شوية العلوج المتطرفين اللي فاكرين نفسهم بيحموا اللي خلقهم... يابني ربنا إن كان حط شريعة وقوانين في الكتب فهو برده قالك استفتي قلبك... ربنا بيسكن في القلوب النضيفة وبيرتاح مع الروح الطيبة اللي زيك... ربنا بيحب الخطاة أكتر من اللي فاكرين نفسهم أبرار... وعمر ما ربنا يأمر بقتل إنسان هو خلقه مهما كان مكتوب في أي كتاب أنا مش هاصدق كده إلا لو بدافع عن نفسي ساعتها هيبقى حقي إني أحارب من أجل عمري وناسي...

قال هذا قصي وهو يترجل من جلوسه على كرسيه ليخرج مستئذنًا من خالد حتى يعطي له فرصة ليرتاح من تعب السفر ولكن حينها وبدون سابق إنذار دَفع باب غرفتهم أربعة رجال وعلى غفلة ضربوا قصي على وجهه بلكمة جعلته يشعر وكأن رأسه انفصلت عن جسده وآخر لكم خالد الذي لم يقاوم وسقط صريع العنف الذي ناله في حين أنهم أخذوا وقتًا ليسيطروا على قصي لكن الكثرة كالعادة تغلب الشجاعة في القتال...

والدة خالد في غرفتها مستسلمة لأمر المرض والفراش لا تدري أنها تدري أو لا... سيطر الرجال على الاثنين وربطوهم بحبال "السلب" وساقوهم وهم مضروبين وشبه غائبين عن الوعي خارج الدار لملاقاة أهل القرية متجمهرين أمام الدار...

قصي بدء يفيق من ضوء الشمس والجلبة الناتجة من صيحات أهل النجع متقدمهم جده "سالم الصبيح" وشيخ المسجد "مصعب أبو أحمد" الذي تزوج ثمانية نساء وأنجب منهم 14 ولد وفتاة لا يعرف أسماءهم...

الناس تعلو بصيحات استهجان لا يفهم منها قصي أو خالد ما الذي يحدث... الناس كانوا متأهبين لحالة حرب فهم ممسكون نبابيت ومناجل مشمرين أكمامهم غاضبين تربصًا للانتقام وأطفال تشاهد كي تتحفز في ذهنها مشاهد العذاب والانتقام ليتحولوا في المستقبل إلى مجموعة أخرى من مرضى نفسيين... ومادامو هم الأغلبية فالمرض النفسي سيصير حكمة وفطنة... النساء مقمطات بالأسود على رؤوسهم يمدون رقابهن خارج النوافذ ليلتقطوا المشهد كاملًا من زاوية علوية...

أردف الشيخ وهو يحرك يده أمام الناس لأعلى فصمت الناس بإشارة

الشيخ مصعب ذي الـ72 عام بقفطانه وجلبابه وعمته مدثر بهيبة لا يمتلكها...

مسك القرآن في يمينه لوح به في يده وقال محدثًا سالم...

"سمعنا ياحاج سالم كثيرًا عن هذا المخنث السنوات السابقة وحمدنا الله حين زفرته الظروف خارج النجع كالبصاق المدمم بفجوره وعهره... لكنا فُوجئنا اليوم وهم يقولون أن حفيدك يمارس معه استغفر الله العظيم... من ساعة ما أتى هذا الصباح حتى الآن فبعثنا بهؤلاء الرجال الأربعة حتى يروا بأعينهم ماذا يفعلون وإن كان حقًّا فيأخذ الحق مجراه والذنب عقابه والجرم عكسه... قولوا لنا أيها الشباب هل رأيتم "المرود في المكحلة" أم ماذا رأيتم...

قاطع حينها سالم الشيخ مصعب وهو ينظر في عيني حفيده بتشف وغل يتراقصان في عينيه من السعادة إذا لاحت له الفرصة أخيرًا وبتدبير محكم استطاع أن يكري 4 أنفار بمبالغ كبيرة حتى يشهدان على حفيده الملعون سواء كان حقًّا أو ذورًا فهو قال لهم وهو يعطيهم المال.. "رأيتموه من قبل أن تروه" فأعصب المال عقولهم وأعمى عيونهم وسجدوا للمادة فذهبوا للتنفيذ دون أي رجوع عن الاتفاق... فإن فكر أحدهم وتخاذل سيكون مصيره هو ما سيفعله هو في هؤلاء الاثنين واحتمال أن الثلاثة الآخرين هم الذين سينفذون فيه العقاب لو خانهم...

فأشاح الحاج سالم بيده ليتوقف الجمهور عن الجعجعة فلم يستجب أحد فرفع الشيخ مصعب يده بالقرآن فصمت الجميع وكأنهم يعملون بمقبس كهربي في يد الشيخ ثم أذن للحاج سالم بإيماءة متعالية إثر تحكمه في تهدئة الجموع بإشارة من يده فأكمل وأردف سالم وهو ينظر في عيني ابن ابنه العاق...

"ياناس، أنا خجلان وعايز أمحي العار من بيتي قدامكم... وانتم عارفين مين هم عيلتي وبيتي لكن اليوم عايز أحط راسي في الطين علشان ميحطهاش الكفرة دول إللي بيعملوا الفجر عيني عينك... نجسوا بيوتنا ونجعنا بأفعالهم النجسة... وأنا أهم شيء عندي رضا الله، أنا عارف إنه حفيدي لكن ربي أهم عندي من حفيدي إزاي أسكت ع الشر حتى لو كان من بيتي إيه ذنب أولادكم وبناتكم... لو فضلوا اللي زي دول في البلد من غير ما يعرفوا حق ربنا... ربنا هينزل نار عليكم من السما تحرقكم مهو الساكت عن الحق شيطان أخرس ولو أنا سكت وداريت ربنا هايعتبرني شريك ومشرك"

فقاطعه حينها صوت أرجل بغلة سليم ابنه بجلبابه الذي يرفل بالطين في أطرافه والمنجل الذي كان يشج به الحشيش في يده... يشق صفوف الناس بعنف وصراخ والجميع يفسح له المجال كأنهم يتفادون مريض جذام إلى أن اعترضت بغلته الأربعة رجال فوقفت خلف الشيخ مصعب وأبيه الذي نظر له نظرة حسرة مصطنعة كأنه يواسيه على فعلة ولده التي سمع عنها وهو في الحقل حين أتى أحد الغلمان راكضًا إليه وهو يقول "ياعم سليم، الحق ولدك مسكوه في وسط البلد رابطينه"..

وحينما نظر هو لسالم أبيه كان محبطًا لا يعرف ماذا يفعل إلا أنه يريد أن يستخرج قصي ابنه الموثوق بالحبال من قبضة هؤلاء الناس فقال "سليم" بصوت مفجوع...

"مالكم ياولاد العبيد عتربطوا ولدي أنا ياولاد الكلاب... ولدي لو غلطان ودوه للمركز القانون يحاسبه لكن تضربوه وتقيدوه ده أنا عدفعلكم أجوركم ياولاد الجزم من جيبي..".

فقاطعه الشيخ مصعب بحزم مكشرًا عن أنيابه

"القانون هو شريعة الله والرسول ياولد ولا تدع حبك لابنك يلهيك عن إرضاء الله ورسوله أيها الأحمق... الآن سنعرف جواب الشهود الأربعة الذين حسب الشرع يجب أن يكونوا شهودًا بنفس الرؤية ونفس القول... هل شاهدتم المرود في المكحلة يارجالة؟"

جاوب الأول بـ "نعم قد رأيتهم" والثاني والثالث والرابع كذلك فقال الشيخ: "إذًا الآن قد بانت البينة وجُهِر الحق وثبت الدليل"

فصاح أهل القرية بصوت عظيم كأنهم اكتشفوا اكتشافًا عظيمًا سيغير تاريخ البشرية.. "الله أكبر ظهر الحق... الله أكبر"

كل ما يفكرون فيه هو الانتقام من قصي على الرغم من أن هذا الشاب لم يؤذِ أحدًا منهم قط لكنهم البشر دائمًا يتصيدون كبش فداء حتى يستفرغوا عليه نفسياتهم المعطوبة وحقدهم المدفون ناحية بعضهم البعض وبصاقهم المكبوح وألسنتهم المطرزة للسب والقذع...

شعوب القرى والنجوع ووجود حالة مثل قصي في وسطهم مع وجود الحِل الكهنوتي والتشريعي تعني تصريحًا مباحًا لكل من تحتوي روحه على شر لم يعالج وكبت تعفنًا داخل نفسه بالانتقام منه... معظمهم ليس له مشكلة مع الموضوع أساسًا ولكن الطاقة السلبية التي داخلهم لا يعرفون أين يوجهونها إلا في العنف والانتقام لمجرد الانتقام ليس لمجرد الدفاع عن الحق

نضحت هذه العفونة على كبش الفداء الذي بالنسبة لهم لا يهم ماذا فعل لكن ما يهم ماذا سيفعلون هم فيه... طاقة الخنوع والتهميش والجهل

التي تجرعوها على مدار السنين ولدت داخلهم حقدًا وعنفًا يكفي لإبادة أي شخص يقع فريسة جهلهم النفسي بأمراضهم...

رفع الشيخ "مصعب" يده بالقرآن مرة أخرى فساد السكات مداد الأرواح وكأن الأمر سحر يلغي عقولهم لفترة من الزمن حتى يسكب فيه هذا الشيخ أفكاره ثم يعود ويُفعلهم بأفكاره الشخصية وبسلاحه المقدس "القرآن" الذي بدأ وحيه ب اقرأ معلنًا عدم الاعتماد على أي شيء إلا "عيناك والمكتوب والله" في فهمك لما هو أعمق من العمق نفسه... ولكن معظم هذا الفصيل المجتمعي في القرى والنجوع فهم يقتاتون على القيء العقلي لبعض الذين احتكروا الحكمة الإلهية غير النهائية في أرديتهم وعمامهم... بتفسيراتهم وتأويلاتهم الجهنمية التي تصنع من الملاك شيطانًا أحيانًا...

تكلم الشيخ مصعب للجمع بصوت جهوري

"يا قوم، يا عبيد الله الواحد الأحد الحي القيوم الذي لا يموت، إن في مثل هذه الأمور نقتدي بالرسول حبيب الله وأشرف الخلق وخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام... الذي جاء بالحق والحق جاء به إلينا لينير أغوار الظلام ويرتب عشوائية وظلمة الخطايا والبشر الفاسد بشريعة الإسلام ختام الأديان... لذلك سنحكم على هؤلاء الزناديق كما حكم أسلافنا على مثل هؤلاء... بالرجم حتى الموت... الله أكبر"

صاح الشيخ مصعب وشعب القرية المجتمعين في صورة نصف دائرة يحاوطون فيها قصي وخالد... صاحوا بعنف قتيم كأنهم يجاهدون في سبيل حماية عائلاتهم بالسيوف أما الحاج "سالم الصبيح" جد قصي فتفاجأ بهذا الكلام الغشيم فهو طالما قرأ القرآن كثيرًا ويعرف أن حد الزنى فيه

هو 100 جلدة فقط فصاح لينقذ الموقف وهو نفسه لا يستوعب الموقف من لغط عظيم أصاب الناس حوله... جميعهم تحولوا إلى وحوش في صراخهم وعنفهم وبصقهم على حفيده وصديقه وقال بصوت صارخ

"ياشيخ رجم إيه بالله عليك... مفيش حكم الرجم في القرآن"

ثم وجه كلامه لأهل النجع: "الله ياناس قال الزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهم 100 جلدة... هو ده حكم القرآن مش الرجم، إن الله غفور رحيم يا شيخ"

فبرق الشيخ في وجه الحاج "سالم" بغيظ شديد وتحدى فحواه أتتهمني بالظلم أيها المختل الخرف فرفع الشيخ مصعب يده بالقرآن مرة أخرى فصمت الناس وهو يوجه نظراته ما بين الحاج سالم وابنه سليم وقصي وخالد

"حفيدك ليس زاني ياحاج سالم، حفيدك لوطي ينكح الرجال والرجال ينكحوه ولا يوجد في القرآن حكم للوطي إنما نأخذ حكمنا من السنة، والسنة تقول إن عقاب حفيدك هو الرجم أو القتل"

فصرخ سليم أبو قصي: "الله هو اللي يحكم مش أنت ياشيخ الدم، والله هو اللي يعاقب ويأدب زي ما هو عايز وإياك حد ياغجر يمس ولدي"

وذهب نحو قصي وبالمنجل قطع وثاقه لم يلتفت أحد لخالد الكل كان يركز على قصي حفيد "سالم الصبيح" عين أعيان النجع...

قصي كان متوترًا من بعد فك الوثاق... مذعورًا كالقط عندما يتحمم وخالد ما زال مربوطًا بالحبال خائف الوجدان ومرعوب ينتظر مصيره

حتى رفع الشيخ مصعب صوته

"ارجموهم بحق الله استأصلوا الشر من بينكم"

فهاج الناس وبدأ صويت الحريم من نوافذ البيوت يصدح عندما رأوا أن رجالهم سيحتكون بعائلة "السوالم"...

رُمي أول حجر فكال الكُل الأحجار... جاءت إحداها في صدر قصي فشعر وكأنه أصيب بذبحة صدرية تفتك بقفصه الصدري... ازدادت الهمجية والناس أخذت تلقي بالأحجار وخالد يصرخ من الألم والضرب... أهل بيت سالم يحاولون أن يخلصوا فاشتد الرجم أكثر فأخذ سليم ابنه وأركبه على بغلته بسرعة فترك جزء من الناس الأحجار وذهبوا حتى يمنعوا قصي من الهروب..

قصي الذي عندما دفعه والده لركوب البغلة من شدة الخوف ركب في الاتجاه الخاطئ فصارت رأسه باتجاه مؤخرة البغلة التي نخسها أبوه بالمنجل لترمح مذعورة وسط الناس وقصي من فوق ظهرها يرى خالد الذي يصرخ من اقتراب أهل القرية عليه كالنمل الفارسي وهم يرجمونه عن قرب أكثر بوجوه مريضة لا تعرف الرحمة ولا الشفقة فأخذ يشعر بالضرب وهو يتهدهد على ظهر البغلة التي ركضت بعيدًا عن الجمع...

الضربات تتوالى على خالد وقصي يراها يشعر بها كأنها عليه... الرجم يزداد إلى أن رأى قصي آخر ضربة رأى فيها خالد يزفر فيها أنفاسه الأخيرة مبصوقة مع لعابه المدمم الذي سال على الأرض ليروي بحيرة الدم التي خلفتها الأحجار من جمجمته ليفقد هنا قصي وعيه مع فراق خالد وهو لا يرى شيئًا سوى السواااد...

****

من بعد السواد انفصلوا صاروا أربعة أرواح "قصي، يوسف، رحيم وسارة" لا يبصرون حولهم شيئًا إلا أنفسهم، فجاء رحيم نحو سارة بقوة تقيده تجعله يفعل دون إراده ما يوكل إليه فدخل في جسد سارة كأنه وهم... هي أيضًا لم تملك زمام الأمور فهي تدرك أنهم غير مُخيرين في ما يعيشونه هذه اللحظات... قصي أيضًا ومن بعد يوسف سكنوا جسد سارة واستكانوا فيه فأصبح جسدها هو عائلهم الوسيط الذي يمدهم بالأحاسيس وحينها استلمت الدفة ذكريات سارة لأخذ الكل إلى خبرة داخل الداخل لإحدى الكايانات المعذبة من كراهية الذات والنفس... أغمضت سارة عينيها تحمل داخل وعيها ثلاث مُدركين وفي لمحة بصر سكنوا الواقع...

****

فتاة تشمل الجمال في قسمات وجهها وردي اللون... سارة نفسها هي في زمان ومكان آخر... كانت في ربيعها الحادي عشر كفتاة تمور مثل قطعة الخميرة التي وضعت في مكان دافئ لفترة وجيزة فتستحيل إلى عجينة مخمرة صالحة للخبز والأكل والشهوة كانت سارة في دورة المياة الضيقة إلى حد كبير بجدرانها المشققة من أسفلها الدهانات نتيجة الرطوبة والمرآة الصغيرة الدائرية المعلقة أعلى الحوض في مسمار مُلصم في الحائط...

الساعة الـ 1 بعد منتصف الليل تسحبت إلى الحمام ثم شرعت في غلق الباب من داخل الحمام لتضع يدها على بنطال بجامتها وردية اللون وتسحبه لأسفل حتى يتعرى جسدها من أسفل فتشعر ببرودة تداعب جلدها الرَخص...

تحضر المرآة وتمسكها في يدها وتوجهها في مابين ساقيها تنظر كم شعرة نبتت وكم شعرة قديمة نمت وهي تبتسم ابتسامة خجلة بينها وبين نفسها فلم تتوان في إكمال مخططها التفقدي فرفعت بلوزتها المطرزة بأحد أشكال ميكي ماوس لتصير عارية من كل شيء من أسفل ومن أعلى ممسكة المرآة في جولة تطلعية على جسدها الغض...

ترفع المرآة بموازاة صدرها لتطمئن على آخر التطورات الطارئة على برتقالتيها الصغيرتين فآخر مرة ازداد حجمهما بشكل مفرح لها فقد صارا يبرزان بشكل واضح من البلوزة وهذا كان يحرجها أمام الناس لكنه كان يفرحها عندما تكون وحيدة أمام المرآة... وها هي تلاحظ تطورًا آخر في لون البذرتين الحمراوتين إذ لونهما أصبح يميل إلى البني الفاتح مع زيادة في حجمهما...

تهللت روحها من رؤيتها لجسدها ومسكت المرآة بيدها اليسرى ووضعت يدها اليمنى من خارج ثديها الأيمن فتكوره ليصنع حزًّا كالذي تراه في أمها وهي خارجة من غرفة نومها أحيانًا بقميص النوم...

تصنع من المرآة فيلمًا تشاهده عندما تحرك المرآة من أعلى إلى أسفل جسدها... شعرها الحريري ثم وجهها لترى أنفها الكبير نسبيًّا دون سائر ملامحها... فطالما كان أنفها دقيقًا وجميلًا لا تفهم لماذا انفجر فجأة هكذا في وجهها كأنه ليس لها بل لفتاة أخرى أكبر منها حجمًا لكنها تتجاهل أنفها وتحرك المرآة على عنقها ومن ثم صدرها حتى تصل إلى وسطها فتدور حتى تصبح مؤخرتها أمام المرآة فتضحك ضحكة مكتومة يملأها الخجل مما تفعله فهي البنت الرصينة الهادئة التي لا يسمع أحد صوتها على مدار اليوم والجميع يشهد بأدبها...

ها هي تتأمل مؤخرتها التي راحت تتكور كأنها عنبة كبيرة كاملة الاستدارة تزين جسدها المتناسق... لكنها وجدت نفسها وفكرها يحثها بنبض مابين ساقيها وهي عارية... اللسعة تصل أكثر وأكثر إلى وسط حقها... ذلك الإحساس الذي أخذ يلازمها طيلة الشهور السابقة دون أدنى معرفة بماهية ما يحدث لها لكنها تستلذه وتبدأ في الاستجابة لصراخ الدم الذي يتدفق بعنف نحو نصفها السفلي... لا تقدر أن تضع يدها اتباعًا لتحذير أمها الدائم من فعل هذا الشيء فهي طالما حذرتها من وضع يدها على أعضائها التناسلية لأن ذلك سيؤذيها لدرجة الموت لكنها لا تجد ضررًا من الطريقة التي اكتشفتها بالصدفة للذة عندما كانت تغتسل عن طريق دافع المياه "شطاف الكومبنيشن"...

جلست وهي عارية تمامًا على مقعد الكومبنيشن وفتحت الشطاف فنفرت منه المياه كأنها أفعوان حي ينقض على فريسته... زودت شدة المياه على نقطة الروعة فبدأ احتكاك الماء المندفع مع جلدها فولد في بظرها وهج وهيجان سيطر على حواسها بشكل كلي...

أصابع قدمها تعتصر الأرض ويداها تمسكان ثدييها وتسحقها فهذا يزيد البركان إثارة تحرك حِقها للأمام والخلف فيندفع الدم بجنون نحو فَرجها المُثار باللذة الخيالية... لا تفهمها ولكنها تعشقها يمر الوقت عليها واللسعة تزداد والشبق يقترب والعصر في الأثداء يصير حيوانيًّا...

الرعشة تغزو عضلات جسدها في نوبات متقطعة في انتظار النوبة العظمى الفارقة... شعور تشعر به والماء يندفع يلامس بظرها كالمسكرات... نشوة تسيطر وعجز يؤطر فقد استكفى عقلها خوفًا من استيقاظ أحد لاستخدام الحمام لكن جسدها مغمور في غمر اللذة

الأسطوري المسكوب بين شفريها يمزق أي فكرة تعلو على فكرة الشِبَع التي في انتظارها وهي تعوي بصوت مكتوم لاكتمال قمر الرغبة في شراييها الموصولة بخلاياها العصبية المتشنجة أسفل بطنها وأخيرًا الرعشة استمرت في الزيادة فتسمع الفتاة آهاتها المكممة بالحياء... ساقاها يرتجفان واللسعة تزداد والماء يتدفق... الدم يتفجر، وجهها أحمر، صدرها يُسحق وها هو الشعور بالكمال والانفصال، الشعور بالخلود، الموت وسط الحياة كي يصبح الموت حيًّا والحياة مواتًا إنه "الشبَق"...

ارتخت عضلاتها من بعد جولتها مع الرعشة المرهقة التي سرت في أسفل عنقها إلى روح بظرها وكل هذا حدث وهي لا تعرف عنه شيئًا سوى أنه شعور لذيذ أو أنه بالحري أروع إحساس اختبرته من لحظة ولادتها...

لملمت ملابسها وارتدتها في سكر داخلي وخرجت إلى غرفتها لتشارك النوم أختها الكبرى سعاد التي اجتازت اختبار الدبلوم بنجاح مما أسفر على البدء في دخولها إلى الطور الإيلاجي في أذهان بعض الشباب الذين كانوا يسكنون في الحي الشعبي التي تعيش فيه...

وضعتها النساء النمامات في فترينة العرض والطلب التي لم تأخذ وقت داخلها بل جاء "مصطفى العسال" خطيبها الحالي يمتلك من السنوات 33 يكبرها بنحو 15 عام... يعمل كموظف في شركة المياه صباحًا وفي المساء يقوم بإدارة محل ملابس شبابي حتى يحسن دخله لذلك هو كان بمثابة الدجاجة بكشك لدى "أحمد السهار" أبو سارة فهو لديه مرتب ثابت ولديه دخل إضافي من التجارة وقدم شبكة في حدود ال25 ألف جنيه وزاد احترام الأب له عندما شرط في جلسة الاتفاق التي حضرتها

سعاد أن... سعاد يجب أن ترتدي النقاب بعد الزواج وهذا كان بمثابة الكارت الأخضر لدى "أحمد السهار" أبو سعاد وسارة التي رقدت على السرير المقابل لأختها وأخذت وسادتها لتحتضنها بدون وعي وهي شبه مخمورة من رحلتها في عالم اللذة داخل دورة مياه بيتهم المتواضعة...

تلاقت جفونها في سلامة الطفولة مع متعة البلوغ وسافرت الذكريات إلى يومها التالي هذا اليوم الذي كان هو جِذر التغير الذي حدث في حياة فتاة لم تفعل شيئًا في حياتها غير أنها أرادت أن تحيا كما خُلقت كاملة تتنفس السعادة في حريتها وسلطتها على ما حباها الله به من كيان كلي ولكن هيهات أن يحدث هذا في وجود ما يدعي العاهات والتقاليد التي لم تتصادم معها إلا في هذا اليوم السودوي التي استيقظت فيه في أحد أيام الجمعة...

ها هي تصحو مرهقة من إجهاد ما قبل النوم الذي اعتادت أن تتلذذ به معظم الأيام إن كانت الفرصة تسنح لها... سمعت وهي تغسل وجهها أباها يخبر أمها أن تجهزها فهم سوف يأخذونها اليوم إلى العيادة وهي لا تعلم عن أي عيادة أبوها يتحدث... ولكنها ارتجفت من إقحامها في شيء ولا سيما كشف صحي...

فهي حين نزفت أول مرة بضع قطرات من الدماء هلعت وكأنها تحتضر ذهبت لأمها فطمأنتها الأم وأوضحت لها أن هذا سيحدث معها خلال الشهور القادمة على فترات متقطعة ومن بعد سيصبح بميعاد محدد... إذًا ما هو لزوم الكشف الطبي ما دامت أمي طمأنتي؟... كانت تتحدث في عقلها وهي تجفف وجهها بالمنشفة... وعندما خرجت من دورة المياه أخبرتها أمها أن تذهب لترتدي ملابسها فهم سيذهبون اليوم

لإجراء العملية... فانقبض قلب الفتاة وبدأ يرتجف بسرعة جنونية... بدأت في البكاء الطفولي مثل الأطفال الذين يخشون أخذ الحقنة من أجل الشفاء ولكنها هذه المرة كانت محقة في خوفها من هذا الداء الذي سيلتصق بها طيلة حياتها...

أمها انتهرتها بشدة ولم تبالِ ببكائها وأختها سعاد لا تهتم فهي قد حدث معها نفس الحدث ولم تستطع المقاومة فالعادات هنا عندما تبلغ الفتاة الحيض يتم تزيينها بالحجاب والختان وفي مناطق أخرى يحدث أن تُختَن الفتاة في ليلة زفافها فيصير حمام دم خارجي وداخلي لدى الفتاة... ولكن سعاد هنا تعرف أنه لا مفر من ذلك لذا لا تشعر بشيء نحو شقيقتها سارة ولا سيما أن شر الإنسان وحقده الدفين عندما يُحرم من شيء سيتمنى لو كل من حوله أن يعانون مما يعانيه من فَقد حتى يشعرون بما يشعر به هو عن اختبار حقيقي...

بعد البكاء والصيحات والرعب الذي دب في فؤادها الطفولي دخل أبوها لتكتم كل آهاتها الخارجية حتى تضيفهم على تَل رعبها الداخلي... كان أبوها قد أكمل صلاة الظهيرة وأتى ليتغدى وبعدها يذهب هو وزوجته إلى الدكتور الجراح المتخصص في عمليات ختان الإناث وهو كان زميله أيضًا أيام الدراسة... يضع خلف مكتبه مجموعته المعهودة "لابن تيمية" التي أخرج منها الجزء الواحد والعشرين أول مرة حين كان يوم ختان سعاد... الجزء الواحد والعشرين من مجموع فتاوى ابن تيمية كتاب له غلاف غليظ أخضر اللون مرسوم عليه إطار أرابسكي أنيق ومذهب يأخذ العيون وفتحه أمام "أحمد السهار" وزوجته كنوع من التوعية لأهمية ختان البنات وأخذ يقرأ عليهم بصوته الأنيق...

"تختن المرأة وختانها أن تُقطع أعلى الجلدة التي كَعُرف الديك، قال رسول الله للخافضة، وهي الخاتنه "أشمي ولا تنهكي فإنه أبهى للوجه، وأحظى لها عند الزوج"... يعني لا تبالغي في القطع وذلك أن المقصود بختان الرجل تطهيره من النجاسة المختفية في القلفة، والمقصود من ختان المرأة تعديل شهوتها فإنها إذا كانت قلفاء كانت مغتلمة، شديدة الشهوة وهذا يوجد من نساء التتر والفرنج وما لا يوجد في نساء المسلمين، وإذا حصلت المبالغة في الختان ضعفت الشهوة فلا يكمل مقصود الرجل، فإذا قطع حصل المقصود باعتدال"

أعجب حينها "أحمد السهار" بما قيل فهو لم يكن يعلم أن الأمر هكذا دينيًّا ولكن هو يفعل ذلك مثل ما عهد في أخواته الفتيات وزوجته التي لم تشعر بأريحية من ناحية المقصود وغير المقصود فهي ختنت وهي صغيرة جدًّا لا تفهم أن كان للمرأة مثل الرجل كل ما تعلمه أنه بعدما يقذف زوجها روحه وهيجانه داخلها تكون المقابلة انتهت فهي لا تشعر بشيء سوى الوجع عندما تجتاح زوجها الشهوة ويتحرك حركة عنيفة داخلها... لكن متعة؟.. فهي لم تشعر بذلك قط وكل ما كان يهمها أن تفعل ما يجعل زوجها راضيًا...

سارة ارتدت ملابسها وساقها والدها كما تساق الشاه إلى يوم ذبحها في الأعياد لإرضاء الله عن طريق الدم والذبح والموت والقتل دون أي إدراك واعٍ عن ماهية الإله...

ولكن هنا "أحمد السهار" يقدم فتاته للذبح وهو لا يعلم لإرضاء مَن... فقبل سماع الفتوى كان يعتقد أنها العادة، وبعد سماع الفتوى إنها لتهذيب ابنته... ضد الشهوة والحفاظ عليها من الهوى والرذيلة لتكون

صائنة لا خائنة لزوجها فيما بعد...

وصلت سارة وأبوها وأمها إلى العيادة في منطقة كئيبة بعد مرورهم بحواري ضيقة وعديدة لم تتذكرها بعد ذلك اليوم، كانت العيادة... شقة في دور أرضي لبيت ما...

لها ممر ضيق على أحد جدرانه توجد دكة خشبية بدون مسند للظهر... آخر هذا الممر غرفة بها فتيات عديدة معظمهن كان يزرفن دموع وهن ينتظرون أدوارهن في التغيير على جروح الختان...

سرت الرعشة في أوصال سارة وهي تصل إلى الصالة التي كان يوجد فيها رجل مُثرم الأسنان يرتدي بالطو أبيض على جِلباب مُقلم يدخن سيجارة أطفأها حين دخولهم على المطفئة الفضية التي أكلها السواد من كثرة ما تحملت من جمر فلاتر نيكوتينه المشتعل...

استقبل التمرجي "أحمد السهار" وعائلته بترحاب ومباركات على الختان وسارة كانت بدون إرادة ولا وعي خلف جسد والدتها تحدق في نقطة من اللا شيء...

كل ما كان يتملكها هو الرعب مما سيحدث لها حتى وإن كانت كل ما سمعته هو أنهم سيقطعون جلدة زائدة في جسدها... ولزيادة طمأنتها قالوا لها أن والدها اختار هذا الدكتور خصيصًا لأنه يعطي تخديرًا للفتيات فلن تشعر بشيء في أثناء العملية...

لكن كل هذا لم يشفِ خوفها من كشفها لهذه المنطقة أمام شخص آخر فهي لم تفعل ذلك إلا مع أمها وكانت في قمة الخجل عندما علمتها كيف تضع فوطتها الصحية داخل الكلوت ثم ترفعه لأعلى لتشرب

الفوطة سائل الحيض...

ولكن من سيكشف هذه المنطقة في هذا الوقت ليس أمها وإنما شخص غريب بل وسيقطع جزءًا منه... ماهو الجزء؟... فهي كثيرًا نظرت في المرآة لم تجد جزءًا زائدًا كل الأجزاء في مناطقها السفلية تشعرها بشيء مختلف إذًا كل جزء كان له دور... فما الذي سيقطعه إذا كان كل ما فيها من أجزاء تشعر... ولماذا هذه المنطقة خصوصًا فكم مرة أمها نهرتها عن عدم لمس هذه المنطقة من الأساس وعدم الاقتراب منها وإن أتى أحدهم واقترب منها تأتي فورًا لتخبرها... لماذا أمها الآن هي التي تصر على أن تعرض هذه المنطقة أمام شخص آخر؟...

أسئلة بريئة تجوب عقل طفلة تستشف أريج البلوغ حديثًا عن حياء وخجل ولكن كل هذا لم يمنع والدها من سحبها من خلف جسد أمها وإدخالها إلى داخل العيادة ليقابلهم الدكتور "محمود رزق" صديق "أحمد السهار" من زمن الدراسة متغاضيًا عن مد يده نحو زوجته وابنتها واكتفى بدعوتهم للجلوس ولا أحد يكترث بما يتخلج نفس سارة من خوف وقلب مفطور... فهم جميعًا يرون أن الأمر طبيعي ولمصلحتها... لذلك لا يتعب أحد نفسه بالشعور بمشاعر الأطفال في فعل هذه المواقف فهو رعب طبيعي ولكن في الحقيقة إنه رعب غير طبيعي وهذا الذي لا يدركه الآباء...

أطفالهم يعذبون في مثل هذه المواقف التي يتثامرون فيها في وقت الطفلة على وشك الدخول في مرحلة من أسفل المراحل الإنسانية التي مرت على مدار التاريخ من أزمنة الفراعنة وختانها المتخلف حيث كانوا يبترون كل الأجزاء الخارجية من أعضاء الأنثى التناسلية من بظر

وشفرين وبعد ذلك يخيطون الفرج كله ولا يتركون إلا فتحة يضعون بها قطعة من فرع شجر لئلا تلتحم حتى يخرج منها البول ودم الحيض ثم طورها العرب قبل الإسلام فورثها العرب المسلمون كعادة ملصقين إياها بالعفة والطهارة وجاء العرب المسيحيون طمسوا الجرح أكثر ليفعلوها كتقليد خوفًا من المسلمين وألسنتهم على بناتهم ولكي يحلل ضعاف العقول والأكباد والكلى هذه الجريمة ألصقوها في الأحاديث والوجوب والفرض والأفضلية حتى يمارسوا دعارتهم الفكرية على فتياتهم البريئة مستغلين سطوتهم وضمائرهم الموسومة بالعفن الوثني والجهل الذكوري في قطع أغلى ما تملك الفتاة وهي متعتها الجنسية متظاهرين أن رسول الإسلام هو من أمر بذلك وهو الذي فضل مجلس العلم على مجلس الحرف ليعلن لأمته أنه في كل زمان ومكان يجب أن يسيروا على سننه وهي تحكيم العقل وتغزيته بالعلم ليأتي العلم بعد ألف ونصف من السنين ليعلن أن ختان الأنثى هي أول جريمة حية حدثت في تاريخ الشعوب الوثنية فتلقفها المجتمع الديني المريض نفسيًّا ليحللها بفتوات غوغائية إذا كان الرسول نفسه سمعها لكان لعنهم أحياء حتى يذوقوا ما سقوه للإناث على مر الزمن ولكن إلى من تنادي...

فبعدما تكلم الدكتور محمود مع أحمد السهار حول العادات والتقاليد والختان وأنه جيد للفتيات ولا يفهم لماذا ينددون دومًا في مجلس الشعب والشورى بتجريمه...

سأل أحمد السهار لماذا انتظر كل هذه المدة على فتاته للخفاضة فالأمر يكون أسهل بالنسبة للأطفال؟... فكانت الإجابة المعهودة هي أنها عادات العائلة الفتاة تختن وتطرح عند الحياض مبررًا أنه يوجد آباء يفرضون الحجاب على فتياتهم في سن الخامسة ولكن أحمد السهار كان

يرى هذا النوع من التزمت الزائد وأن عادات عائلته متحضرة ومتماشية مع الدين فاتحًا سيرة أنه لم يسمح "لمقار الحلاج النصراني" بعمل عملية الختان مع أنه معروف بالبراعة فيها في حيهم الشعبي بل فضل أن يأتي بها إلى رجل متعلم ومثقف حاصل على بكالريوس الطب ليفعل مثل هذه الأشياء وكأنه بهذه الشهادات يقول أنه متحضر وليس رجعيًّا...

سارة حتى الآن تتمنى إما أن تموت أو أن الدكتور يموت أو أي شخص يموت حتى يُلغى... كانت تخاف أن يحدث لها ولكن أحلامها وأمنياتها أبت أن تتحقق في مثل هذا الوقت بل نادى الدكتور بالجرس الذي يقبع أسفل مكتبه على الممرضة التي كانت تقوم بالتغيير على الجروح لتأتي هذه الممرضة بجسدها السمين وبشرتها السمراء والبالطو المرقع باللون الأحمر القاني من آثار البيتادين...

ذهبت نحو سارة الهالعة مما يحدث فهي لا تصدق أن هذا يحدث، يد الممرضة تمسكها بقوة سبعة جواميس لم تتمكن من منافستها ولم تتمكن أيضًا من الصمود أمام دموعها فذرفتها بهلع مغصوب... أمها معها ولكنها ليست معها فهي لا تشعر بها...

ما أقصى الأباء أحيانًا يعتقدون أنهم يفعلون الصلاح لأولادهم ولكنهم لا يعلمون أنهم يرسمون الكراهية على قلوبهم بإزميل حديدي ساخن فالأم هنا لا تفعل شيئًا سوى أنها تنظر لسارة وهي تقول لها كلمات تهدئها ليس إلا وسارة عيناها تكادان تنقض من محجريها ناحية الباب وأمها راجية أن ينقذها أحد وهي ترفس وتتلوى بكل قوتها ولكن هيهات مع هذه الممرضة "السوبر ومن" أتت بالمخدر في قطعة قماش وشممتها إياها حتى تستنشقها ففي مثل هذه الحالات عندما تكون الفتاة

كبيرة لا يصلح معها لا مخدر موضعي ولا مخدر وريدي فهي ستخاف في كل الأحوال لذلك يفضلون الاستنشاق...

بضعة ثوانٍ وكانت سارة مخدرة وبدأت تشنجات جسدها تنسحب تدريجيًّا وهي تنظر لأمها قبل إغماضها لعينيها نظرة أليمة فيها وحدة وكراهية وخِزي وخجل...

لكن أمها لا تفهم شيئًا فقط تتمتم بكلمات تتمنى فيها أن تخرج ابنتها بالسلامة من العملية،

بعد أن ذبحوا ملكيتها وسلبوا حقها في المتعة... مرت الأيام والليالي وفكت المسكينة الضمادات والتأم الجرح الذي عذبها عند التبول عذابًا شديدًا فأحيانًا كان البول يلمس الجرح فيصير جهنم من الحرقة في مكان القطع وكأن هؤلاء الأشخاص لم يسلبوا متعتها فقط بل أيضًا أعطوها الألم هدية مجانية على ما فعلوه بها من جرم...

ولا أحد يشعر بها ولكن بالعكس كان الجيران يباركون ويتمنون الزواج لها وكأنها الآن أصبحت عروسة في سن الحادية عشر في وقت هي كرهت فيه كل من كانوا حولها بشدة... فالكل يعبث حولها بغباء متناهٍ غير مبالين بما تشعر به من ألم وغصة باتت روتينية لازمتها من وقت ما قررت أن تدلف إلى مكانها السري وتغلق معها بابها وتنظر لوجهها الكئيب في المرآة كأنها سيدة في الأربعين...

حزنها عميق وحقيقي تعاني شيئًا دفينًا يمخر في جوف أحاسيسها التي باتت باطنية كل الوقت لا تعبر عنها إلا في الصمت... فتاة في الحادية عشرة تلوذ بالصمت!.. نظرت إلى عينيها كأنها تستجدي شخصًا كانت تعرفه جيدًا...

عينها ليست لها وإنما الصورة التي في المرآة صورة غريبة عنها ولكنها جمعت رباط جأشها وحماستها وحملت المرآة الدائرية ذات الإطار البلاستيكي الرخيص نحو وسطها بين قدميها لترى النسخة المعدلة إنسانيًّا من بعد ما خلق وأبدع الإله هذا الجزء فقام أبواها بتعديل هذه الجزء وكأن الإله غفل عنه في خلقه...

أو لم يعلم ما عواقب وجوده في الأنثى فقرر بعض البشر تعديل خليقة الإله مساومين ختان الذكور الذي هو فريضة بغرض العهد حدثت ما بين إبراهيم والله بختان الإناث التي منهم هذه الفتاة الشابة التي ذرفت الدموع عندما شاهدت فرجها وهو مبتور الجلد البارز...

أصبح كأنه عضو جديد تمت زراعته بدل من القديم التي طالما ذابت في حبه... شعورها كان سيئًا بقدر أم فقدت طفلها أمام عينها ولم تستطع إنقاذه... ألم يسيطر على قلبها الصغير على الحزن والكآبة ولكن ما كان كان فأملت نفسها بمتعة تنتظرها طالما أخرجتها من حزنها في أوقات الفراغ فجلست على مقعد الحمام وفتحت صنبورالشطاف الذي دفع المياه فجأة...

فارتجفت لأنها كانت قد شعرت بنفور من لمس المنطقة السفلية لديها من كثرة التعرية والتغير بعد الختان وكأنها أصبحت قناة تلفزيونية أختها وأمها تشاهدان أعضائها وهي لا تتكلم ولكنها الآن تريد أن تختبر السعادة التي طالما اختبرتها عندما تلامس نافورة المياه بظرها التي حاولت أن توجه المياه نحوه بتحريك مؤخرتها ولكنها لا تشعر بشيء فحسبت أنها في المكان الخطأ فحركت مؤخرتها مرة أخرى تبحث عن نقطتها المحبوبة التي كانت تتوهج بمجرد الملامسة ولكنها لم تجدها... دب الرعب في

قلبها بشكل هستيري فهي شعرت كأنها استيقظت من النوم ولم تجد أطرافها الأربعة وهذا واقع فهي لم تجد عضو من أعضائها... فالماء يتدفق وقلبها ينقبض وعقلها يتمنى أن يتعرف على أي آثار لما شعرب به من قبل فكل ما تشعر به هو دغدغات كالذي يشعر بها الإنسان عندما يلمس سقف حلقه أو يحرك إصبعه على نقطة في بطن يده مجرد دغدغة لكن أين اللسعة؟.. أين اللذة؟ أين شد العضلات؟ أين الرعشة المتقطعة؟ أين الرغبة؟ دموعها صارت جنونية دون أي تعبيرات...

فهي مازالت تحاول في تحريك مؤخرتها بشكل سريع وكأنها أب يبحث عن ابنه الضائع وسط الزحام... قلبها ينبض أسرع وأسرع، خوفها وكابوسها يتأكد ويصبح حقيقة... نشيجها علا بحيث سمعت بكاءها وحسرتها على ما أخذوه منها دون وجه حق أو وجه عدل...

آلاف الأفكار تعبر في ذهنها وهي لا تزال تحاول أن تستثير نفسها ولكن لا شيء... فقط شعرت بالمعنى الحقيقي للفقد والعجز والضعف... استنارت عينها على الشر وتعرف داخلها على الكراهية التي أقامت في كيانها مُسفرة عن خيوط مثل خيوط العنكبوت من الحقد والحسد والألم ولكنها لم تيأس قررت أن تبيح المحظور الآن فهي لم تمتلك أفكارها بل أفكارها تمتلكها إلى وضع يدها باحثة عن المكان الذي كان يثيرها في الماضي تضغط بأصابعها لكنها لا تشعر إلا بشيء خفيف لم تعهده لكنه شعور مقيت فهي شعرت أنها تريد أن تتبول فتبولت واختلط بولها مع مياه الشطاف مع يدها التي تبحث عن طفلها التائه ولكن أيضًا لازلت تشعر أنها تريد أن تتبول مازال الاحتقان موجود هذا الشعور القذر لأول مرة عانت منه في هذا اليوم... شعور خبيث بعدم الشبع... شعور بالضيق لا يعاني منه غير مدمن أيًّا كان نوع الإدمان بعدم الاكتفاء

هنا كان عادلًا والإدمان هنا كان إلهيًّا فلماذا أوجد الله الشهوة البشرية إن كان يكرهها ولكن هنا لم تحرم من الشهوة...

فالذي غفل عنه هؤلاء الحيوانات البشرية الذين فعلوا هذا... أن الشهوة تكمن في الدماغ أما ما يكمن في البظر فهو اللذة... ومن غبائهم الناجم عن العادة والتقليد لم يفهموا أن الحرمان من اللذة لا يروض الشهوة وإنما تهذيب الشهوة هو ما يروض اللذة غافلين عن امرأة فوطيفار خصى فرعون المختونة بأفجع أنواع الختان وهو الفرعوني التي حتى وبعدم وجود أي أعضاء أنثوية تُلذها ظلت تشتهي يوسف وتغريه حتى كان سيقع في شركها ولم يبصروا في يوم من الأيام أن خِفاض الإناث مقصده عقلي لتخرج الفتاة من شرنقة الفرج وتعلوا بأجنحتها فوق بُستان المسئولية لتصير النصف المكمل للمجتمع فتتغاضى عن الشهوة والتفكير فيها من فرط الفراغ التي كانت تعاني منه النساء في أزمنة الجهل وقمع المرأة مختذلين إياها في فتحة بين ساقيها وثمرتين على رئتيها أداة للمتعة الوقتية لا شريكة في السعادة الوجدانية...

فزع ممزوج بحزن وهي تحرك يدها والماء يتدفق وتبكي من اليأس، أخيرًا يأست واستسلمت للاحتقان يأكل فرجها فعلاجه الوحيد أصبح في أحد سلات المهملات تأكله القطط والكلاب...

أغلقت المياه وارتدت ملابسها وجففت وجهها من الدموع ولكن عينيها مازالتا تملك الحزن امتلاكًا وتبيتان داخل كهف الكآبة والوجع النفسي... فهي فتاة على أبواب الثانية عشر من عمرها ولكن ما مرت به في هذه التجربة أسكن داخلها إدراك المعنى البكر للألم فهي فقدت ما يشعرها بأنوثتها فمهما كبرت ونضجت وورفت أنوثتها سيستمتع بها

غيرها ولكن هي ستظل مشلولة غير مُلتذة... قطعة لحمية تطبخ على الأسرة ليس لها الحق في الشعور بما تعطيه أو اختبار ما تمنحه من متعة لغيرها...

فخرجت من دورة المياه مهتاجة المشاعر ورهيفة الأحاسيس، عنيفة الأفكار، ذهبت لغرفتها المظلمة وجلست القرفصاء على سريرها تحدق في الظلام وتسمع الهدوء برصانة البالغين وبهدوء مدبرين فكرها بين الهيجان والزخم أصابها الصداع وجعل عرقها الذي يوجد على يمين جبينها ينبض كالمُلتاع حينها نظرت إلى المقلمة التي كانت تضع بها أدواتها المدرسية ففتحتها وأخرجت منها البرجل التي كانت تستخدمه في دوام الرياضيات لعمل دوائر هندسية فأمسكته بِغِل بين إبهامها وسبابتها وأتت بسنه المحدود الذي صُمم كي يخترق الورق ليثبت فيه وكل أفكارها تؤدي إلى كراهية جسدها... كرهت أمها وأباها تمنت أن يموت أمامها أو يأتي أحد ويبتر عضوه كي يشعر بما تشعر به هي... خائفة مما فعلوه بها وبدون وعي بدأت تغرس البرجل في وركها الأبيض البض فاخترق البرجل قماش البنطال الذي كانت ترتديه وتشمم رائحة جسدها فأبى أن يأذي جسدها الرَخَص ولكن يدها تحكمت فيه فغرسته في وركها ببطء وهي تشعر بالألم...

أفكارها تتواصل مع شعورها بالألم وخروج قطرات الدم منبثقة تلطخ جزءًا من بنطالها جعلها تشعر للحظة بالرضى بعدما آذت جسدها وكأنها انتقمت من عدوها...

أصبحت غير واعية لما تفعل بنفسها... تريد أن تسكن جسدًا غير جسدها غير الكامل، الموؤود المتعة... تمنت أن تشعر بما كانت تشعر به

من كمال في هذه اللحظة التي كانت ترى فيها السماوات والأرض عالم واحد... ومن هنا بدأ عداؤها نحو جسدها يحدث بمنحى بطيء لكنه جنوني...

حينها حملتها الذكريات إلى الثمانية عشر من عمرها لتجد نفسها في آخر سنة في المدرسة الصناعية الثانوية داخل فصلها مع الفتيات الجامحات اللائي يُشبهن قطيع غزلان في طور التزواج...

فتيات صهباوات مرتديات أقمصتهن وطرحهن البيضاء وجيباتهن الزرقاء... مجموعة تتخذ من الأدراج طبولًا وأخريات يتقمصن أدوار الغوازي بأبهى وأشرس صورهم فتتنافس كل منهن على من هي الأكثر ميوعة ومن هي الأكثر جرأة في رقصاتهن التي يذوب لها الحديد وهن يتمايلن نحو الإمام فتسجد الجدران لمؤخراتهن الممدودة للخلف ويرافق الظل ميولهن يمينًا ويسارًا وأخريات تراقب الممر وأخريات لا تهتم وأخريات يمارسن هوايتهن الأجمل على الإطلاق وهي "كلام البنات" فأجمل ما تفعلنه الفتيات مع بعضهن البعض هو التجمع في مجموعات صغيرة لكنها في الباطن كبيرة فهم يتكلمون عن أي شيء يحدث لهم بالتفصيل ومثلما الفتاة عندها قدرة غريبة في مواصلة الكلام فهي تتلذذ جدًّا بالسمع لأنه هو المادة الأساسية التي تشحن مواضيعها وأحاديثها... وهنا سارة كانت في مجموعة من هذه المجموعات يتحاورن حول الفتيان والشباب وتطرقت إحداهن لليلة الدخلة وما يحدث فيها وبدأت تتحدث عن ما سمعته من عمتها الصغرى المتزوجة وهي تنصح أختها في ليلة دُخلتها فسمعوا الفتيات بخشوع تام وتركيز كأنهم يستمعون إلى شيء مقدس على الرغم أنهم يعلمون ما يحدث ولكن هذه المواقف مثل رائحة العسل للدب يجري نحوها أميال وأميال فتكلمت الفتاة وشرحت

ما سمعت من نصائح ليلة الدخلة وبعدما انتهت أخبرتهم فتاة أخرى كانت تجلس معهن أنها ستذهب إلى الحمام في صورة هزلية فضحكوا جميعهن ضحكة رقيعة موجزة تضحكها أي فتاة عندما تتكلم في مثل تلك المواضيع إلا سارة التي شعرت بوخزة موجعة في مكان ختانها ونظرت إلى أصدقاءها بنظرة ساهمة...

جعلتهن يعتبرونها غريبة الأطوار... حينها قررت وبعد السبع سنوات من هذا اليوم المشؤوم أن تصارح نفسها بألمها وذهبت إلى بيتها وأمسكت هاتفها المحمول وفَعلت المسجل الصوتي وتكلمت بصوتها كأنها تواجه أباها وأخاها وأيًّا من كان في اعتراضها على حالها سيعاندها... وقالت

"ذهبت أحاول مداعبة نفسي لم أجد شيئًا كأني ألمس وجهي أو شفتي لا يوجد ما يمكن أن يستثار هنا... منطقة قاحلة لا تحرك أي شيء... فبكيت بحرقة أحسست بالنقص أحسست بكم أنا أفتقد ما تملكه جميعهن لا أستطيع أن أصف شعوري ولا يستطيع أحد أن يفهمه وكأني قد فقدت أصابع يدي وأرى الجميع يكتب ويرسم بشغف كل ما يريدون... لم أبغض في حياتي شيئًا مثل الختان... لم أفهم لما أنا... كيف حدث هذا؟ وكيف سمحت لهذا أن يحدث لأني لم أستطع يومًا أن أسامح أبي على ما فعله ولا أسامح نفسي أيضًا على ذلك... انظر حتى تفهم شعوري... إذا أفقت يومًا من نومك ووجدت عضوك أصبح قطعة لحم باردة لا تشعر بأي شيء عند لمسه وعندما تلمسه كأنما تلمس أنفك أو تلمس شعرك... ماذا سيكون شعورك حينها؟...

أبكي الآن وأنا أقول تلك الكلمات... ليس لي الحد الأدنى من الحياة... أتذكر جيدًا حينما سألتني إحدى صديقاتي عن ما أفعله عندما

أكون مستثارة فأجبتها بلا شيء لا أفعل أي شيء أجلس وأحدق في الفراغ كالجائع الذي لا يأكل ولا يستطيع أن يأكل...

ولا أستطيع أن أتجنب هوسي لممارسة العادة السرية وبكائي على فشلي وأبكي على محاولتي الدائمة لجعل نفسي مستمتعة مثلهن وليس في أي عيب... أتعلم يا أبي أن جل غضبي من هذا المجتمع ومن هذه العادات البغيضة أنه لا يريدني أحد أن أحس... يتلون تعليمهم وأخلاقياته أنه لا يصح للمرأة ممارسة الجنس قبل الزواج ليحكمون على شرفها وأخلاقها بذلك الغشاء الرقيق وفي نفس الوقت لا يريدون أن تلمس جسدها... يريدون إزالة كل ما يسعدها فقط لمتعة الرجل وإسعاده...

هي تلك اللعبة التي يستمتع بها... يدفع قليلًا أو كثيرًا من المال كمهر ثم يتزوجها فتصبح له كالدمية...

كم هن النساء اللائي لم يعرفن قط عن النشوة الجنسية؟.. كم هن النسوة اللاتي مكثن مع أزواجهن سنوات عظام ولم يتمتعن أبدًا. يتناسون ويغفلون بعمد أن المرأة إنسان ولها مثله احتياجات...

نعم أنت من حقك أن تلمس نفسك، أنت من حقك أن تقوم بالاستنماء، أنت من حقك أن تتحرش بهن في الشارع ولكن هن ليس من حقهن أي شيء بل هي إذا قامت بحقها الطبيعي تنهرها وتقول لها لا يصح ذلك... ولا يجد ضررًا هذا الفتى في مداعبة قضيبه عندما يستثار ولكنه قد يجد كلامي هذا غير مناسب وقد يجد أن أبوح به فأنا فتاة قليلة التربية...

أعلم أنك قد تجد كلامي غير مناسب وقد تجد البوح به غير مناسب وقد تقول من هذه التافهة... أهذا جُل ألمها ومشكلتها! في الحقيقة نعم...

كل منا له مشاكله التي يراها الأكبر والأكثر ألمًا في رأيه يعيش خلالها وتعكر صفو حياته هو وليس أنتم ونعم أعلم أن هناك الكثيرين بدون طعام ولا مأوى ولكننا أيضًا لا نزال نشتكي عندما تنقطع الكهرباء ساعة واحدة وأنتم تعلمون أنه يوجد ملايين بدون كهرباء أصلًا فصدقوني كلنا نأبه بألمنا فقط... أنت تأبه بآلامك فقط... أنت تجعل مشاكلك وما يسعدك وما يتعسك وما يفرحك وما يؤلمك تجعل منه الإلياذة والأوديسا التي يجب على الجميع أن يعتبرها ملحمة كبيرة مؤلمة... أنت لا تهتم إلا فيما يهمك وإن اهتممت بما يؤلم غيرك يكون اهتمامك بنفسك له النصيب الأكبر نصيب الوحش... لذلك أنا حقًّا متألمة متألمة جدًّا.".

أغلقت المسجل الخاص بالموبايل وقررت في ربيعها الثامن عشر أن تتمرد وقالت لنفسها كم يا نفسي احتملتِ غباء الوالدين بحجة إرضاء الله وهم لم يحتملوكِ في الله ولم يفكروا أبدًا في الله بل كل ما اختلج عقلهم هو منظرهم أمام أقاربهم وقطعوا جسدك لمجرد العادة ولم يكلف أحد منهم نفسه البحث عن ما يفعله في فلذة كبده...

فأبي لا يشعر بشيء مما أشعر به الآن من نقص، كم يا أبي أريد أن أبتر عضوك وأجعلك تنام مع نساء العالم أجمع حتى تشعر بما أشعر به الآن من ضعف وهوان ومذلة... نساؤك الذين عاهدتهم هم ليسوا أنا... أنا سأتمرد عليك لأنك لست بأبي... فالأب ببساطة لا يخجل من خليفته والأب لا يُعدل على خليقه الإله والأب يحترم ذريته ويقدسها لأنها امتداده وفحواه

وهذا يا أبي ما لم يكن فيك فأنا اليوم سألفظك كما لفظتني داخل جحيم عاداتك وتقاليدك دون أي شفقة أو رحمة... حينها قررت سارة

أن تترك بيتها وتترك حيها وأمها وأباها وأختها وكل من كان شاهدًا على ذلها وصمت...

قررت أن تتمرد على جسدها وتعاقبه بالتوهان إلى حيث لا تعلم فتركت رسالتها الصوتية في خلفية جهازها المحمول الذي تركته على سريرها وخرجت من بيتها إلى حيث لا تعلم أفكارها مشوشة تنظر إلى الوجوه بطريقة مختلفة وترى نفسها من الخارج وهي تمشي كأنها حالمة فالأماكن والأشخاص والأصوات والمحيط أصبح موجيًّا غير ثابت وسارة داخله ترى كل شيء وكل شيء ينظر لها فتعتمت الصورة كأنها إضاءة تخفت في تدريج بطيء حتى صارت من الذكرى إلى سواد...

****

فتح الأربعة يوسف ورحيم وقصي وسارة أعينهم أخيرًا من بعد رحلتهم الأخيرة داخل ذكريات سارة ليروا أمامهم وحولهم مكان فارغ ولكنه مضاء بإضاءة تشبه إضاءة الشمس ولكن دون وجود لقرص الشمس... لا يعرفون اليمين من اليسار أو الأعلى من الأسفل... عدم وفراغ مضاء ولكنهم لا يرون إلا بعضهم البعض بوضوح...

يوسف يرتدي جلبابًا أبيض قصيرًا وله لحية طويلة وشارب غير موجود... رحيم لا يرتدي شيئًا من الأعلى وفقط يرتدي بنطالًا جينز... قصي رجل رث الهيئة يرتدي جلبابًا يعلوه جاكت مُزدان بالطين والعفن... سارة فتاة ترتدي بلوزة وبنطال جينز...

كل منهم لاحظ الآخر في وسط هذا الفراغ الكتيم الذي يصيبهم بالحيرى والارتباك حتى أنقذهم صوت رجل فجأة وجدوه على صخرة أمامهم لا يعلمون متى خرجت هذه الصخرة ولا يدرون من هذا...

كان الرجل حسن الهيئة جدًّا مكتسيًا بجلباب أبيض طويل يعطي لهيئته الطويلة ورعًا وحِدة ويحدد وجهه شارب ولحية مهذبتان على شكل مرساة سفينة مع شعر متوسط الطول الذي يرفعه لأعلى فيكون خصلًا متفرقة تعطيه جاذبية خاصة وكأنه الرابح في مسابقة ملك جمال العالم... ينظر لهم وهو يجلس على الصخرة مربعة الشكل بابتسامة لطيفة جميعهم استحسنوها... فقام وذهب نحوهم حتى اقترب منهم ليصبحوا جميعًا في حيز متقارب وهو يتوسطهم... قصي ويوسف على يساره ورحيم وسارة على يمينه وزادت ابتسامته لتضع جوًّا من الاطمئنان لدى الأربعة وقال لهم بصوت رخيم وحلو

"أهلًا بكم، أنا الموت"

فأصابت وجوههم البلاهة كأنهم أطفال يسمعون عن النسبية... فأردف وهو يبتسم

"لدي لكم خبران"

فتغيرت ملامح البلاهة إلى نظرة عطشة لإجابة الاسئلة التي تغلي في عقولهم على نار هادئة...

فقال الموت بإنسانية مفرطة

"الخبر الأول هو أنكم الآن أموات... أما الخبر الثاني هو أنكم أحياء"

فنظروا إلى بعضهم البعض وهم لا يفهمون شيئًا فهم يدروكون جيدًا في هذا الوقت أنهم في مكان ليس على الأرض ولكنهم أيضًا أحياء مدركين ما حولهم ويمر عليهم زمن ويرون شخصًا يدعو نفسه الموت الذي شعر بحيرتهم فاكتفى من الغموض ليعطيهم دواءً من التوضيح...

"دعوني أشرح لكم أيها الأحباء... أنتم الأربعة راودكم الألم بطرق عدة والحزن سكن نفوسكم زمنًا لا بأس به فحدث وأن جميعكم كفرتم..".

فلم يكمل الموت جملته حتى زعق "يوسف" بصوت عالٍ كأنه يدافع عن نفسه في قضية إعدام

"لا أنا لم أكفر"

فاحتوى الموت هيجان يوسف وقال له اجلس فوجد الأربعة خلف كل واحد منهم كرسيًا فلم ينبهروا كالعادة فهم الآن يتكلمون مع الموت وجهًا لوجه فما الإشكال في وجود كراسي من العدم...

فأجاب الموت وهو ينظر إلى يوسف

"الحقيقة هو أنك لم تكفر فقط يا صديقي، ولكنك في الحقيقة ارتكبت حماقة أعظم وهي تشويه صورة الإيمان نتاج عفن نفسك التي قهرها الألم..".

فحاول يوسف أن يحامي عن نفسه ولكن الموت قاطعه مجيبًا

"اعلم يا صديقي، أنك تتعبد لله بصدق وكنت أمينًا فيما تفعل ولكني دعوني أوضح لكم مسألة الكفر كمعنى... فأنت يا يوسف أخذت من الدين ما يخدم انتقام ذاتك مما آذاك فأوّلت الإله لصالح رغباتك فأصبحت أنت في داخلك إله الإله دون أن تعلم ولكنك تقصد... جعلت التاريخ مرجعك للانتقام مع العلم أن الانتقام ليس للإنسان ولكنه لصاحب الأمر الأعلى... فالإنسان يمكن أن تكون أفعاله شريرة ولكن داخل ضميره ألمًا عظيمًا من أفعاله حتى يجد من ينتشله من حمأة القذارة المتمثلة

في الأفعال فيتغير ويصير قديسًا...

مهما كنت تظن أن الشر يسكن الإنسان تذكر دائمًا أن الخير أيضًا يسكنه ولا تيأس من ذلك... فالله لم ييأس من الإنسان ولكنك أنت يأست من الإنسان وقتلت لا في سبيل الله لكن في سبيل انتقامك إلى نفسك...

فالله لا يريد أحدًا أن يدافع عنه وعن عقيدته... وببساطة دعني أقول لك إن كان الله مستاءً من أحدهم أو أحدهم آذى مشاعره فهو قادر على أخذ حقه بنفسه...

ودعني أوضح لك للمرة الأخيرة الله لا يحتاج لحماة الإيمان لأن الإيمان عمل داخلي ودواخل الإنسان هي عقله إذًا فالإيمان عمل عقلي لن تستطيع بالقمع السيطرة عليه لأن الفكرة لا تموت"

قال هذا الموت وهو يعلم أن يوسف يفهم عما يتحدث عنه... ثم أردف الموت:

"أما بقية القصيدة هي أنكم بعدما تألمتم قررتم الانتحار فهناك من انتحر ذاتيًّا مثل قصي بعدما هرب من قريته وقرر أن يجد في الوحدة والسياحة ملاذه كارهًا البشر وصياحهم وشرهم... وهناك من قرر أن ينتحر جسديًّا حتى يجد أجوبة لأسئلته مثل رحيم وأيضًا مثل سارة التي قررت أن تجد لذتها الأخيرة في أذية جسدها الذي أفقدها شيء عزيز عليها... ويوسف بالطبع الذي انتحر وجوديًّا داخل قوقعة ولج إليها بهدوء من ذكرياته... فوجدنا نحن الأقدار فيكم الدفعة الجديدة التي قلما تتكرر من الأنبياء لأن الألم يفتح أبواب النبوة...

وها أنتم الآن بعدما مررتم بأول الصفوف وهي اختبار آلام الآخرين

حتى تعلموا أن الألم شعور واحد ولكن مسبباته مختلفة... فعذرتم بعضكم البعض من بعد العداوة... فآلام البشر من أكثر الأشياء التي ينظر لها الله بالاحترام مهما كان الآخرون يصفونها بالسطحية لتتخطوا المرحلة التمهيدية في فصل الألم إلى المرحلة التالية من مدرسة الأنبياء...

تمت

2014/12/15

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

ألم النبي

أيمن سليمان عبد الملاك

رواية

أخذ يقترب منه بخطوات بطيئة لكنها ثابتة عين تثقب عين ونظرة تقذف نظرة..إلى أن وقف أمام الرجل الذي يعاني ورفع يده إلى أن جعلها على صدر هذا الذي يقف ويهذي في أنصاف الليالي، وبرود ناقة تحتر قبلها في عجف الصحراء رفع يده ورساها على صدر الشاب الذي يقف على الجدار الإسمنتي وأراحه نحو السقوط وهو يرى البسمة على وجهه ضاحكًا ومستسلمًا، مستذابًا في الشعور بالرضا، تارك العنان ليديه تتحسسان نسيم الغرق وهو ينظر للجميع الذين مدوا رؤوسهم لينظروا إليه فوجدهم وكأنهم يصعدون إلى السموات... في السقوط لا يميز المرء من الذي يسقط أو من الذي يعلو... وبهدوء استقبل الماء ...

تصميم الغلاف
عبد الرحمن الصواف

المصري
للنشر والتوزيع